725

روايات عبير

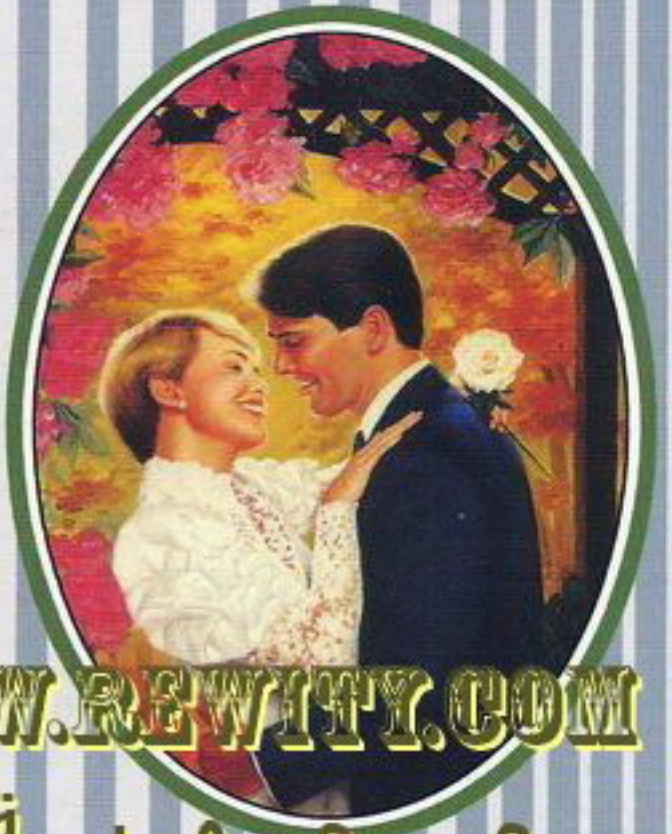

WWW.REWITY.COM

مرموريـــة

Emma Beaumont

التَّضحيَةُ الكُبْرَى

الأصليَّة

روايات عبير

«التَّضحيَةُ الكُبْرى»

كانت «رافينا» فتاة جميلة، وكانت تحبُّ «رودري» الذي تركَ عمله كضابط بالجيش، كان «رودري» و«رافينا» قد نشآ مع بعضهما منذ الصغر، حيثُ تولَّى والد «رودري» الوصاية على «رافينا» بعد وفاة والديْها. تَسبَّبَ «رودري» في وفاة أحد الأطفال عندما صَدَمه بسيارته، وكان عليه أن يدفعَ ثمنَ خطئه لكنْ يشاء القدرُ أن تشتركَ «رافينا» في دفع هذا الثمن. حيث عرض عليها والدُ الطفل - ويُدعى «مارك» - الزواجَ به وإلا انتقم من «رودري» بنفسه. فهل تُضحِّي «رافينا» بنفسها في سبيل إنقاذ «رودري» من هذا الانتقام الشديد؟ أم ترفض هذا العرْض وتفكّر في نفسها؟!

Mr-Rewayat.com
مـــر - روايات

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338060 -0
9 789953 380605

العنوان الأصلي لهذه الرواية

A Flood Of Sweetfire

تأليف

Emma Beaumont

الغلاف بريشة الفنان

Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مـــر مـــوريـــة

التضحية الكبرى

(725)

الناشر

المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون: **00 961 9 212 666** – فاكس: **00 961 9 212 665**

ص.ب **374** جونيه – لبنان

Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع

دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

وضع العريس يده فوق يد العروس وراحت اليدان تقطعان كعكة الزفاف بين هتافات التهنئة، ورنين الكؤوس، وجلجلة ضحكات المدعوّين. سأل أحدهم العريس:

– أحقًا ما يتردد في وطنكم أن الرجال يصفعون العروس في يوم زفافها حتى تعرف من هو السيد؟ ابتسم «مارك دي كورزيو» وقال:

– أنت تتكلم عن أهالي «صقلية» أما أنا فأحد أبناء «سردينيا». وبينما كان «مارك» يجيب عن أسئلة تدور كلها حول «سردينيا»، ناول أحد المدعوّين العروس ظرفًا صغيرًا أصفر اللون وقال لها:

– هذه الرسالة وصلت لتوها يا «رافينا»، أتوقع أن تحمل في طياتها حظًا سعيدًا لك. وشاب ابتسامتها شيء من التوتر، عندما فضت الرسالة وراحت تقرأ فحواها. عندئذ ألقت نظرة سريعة إلى «مارك»، وفي لمح البصر دستها في أحد قفازيها الحريريين، وغمر الشحوب وجهها حتى بدت عيناها بلون الجواهر الخضراء. وأخيرًا حان وقت الصعود إلى الطابق العلوي لارتداء ملابس رحلة شهر العسل. اعتذرت إلى إحدى صديقاتها التي تقدمت تبغي مساعدتها على تغيير ملابسها وقالت لها:

– أنا... أنا... أريد أن أنفرد بنفسي. أسرعت تتخلص من ثوب الزفاف الذهبي الشاحب، والشال المزين بشريط من شرائط «ويلز». لم يستغرق التغيير وقتًا طويلاً، وعندما ارتدت ملابس الخروج وقفت أمام نافذة غرفتها، وتأملت شجرة الدردار التي ارتفعت وسط الحديقة، وحملها الحنين إلى الماضي فرأت «رودري» وهو يتسلق الشجرة ويقبع بين أغصانها. وكان يومًا ما يبدو لها فارس أحلامها المغوار. وفي يوم آخر يتلبسه الشيطان ويأخذ في مشاكستها. هكذا شبت هي و«رودري» سويًا في ذلك البيت على حدود «ويلز». كان

الابن الوحيد للعقيد «كاروت برينين» الوصي عليها لعدّة سنوات. وكثيرًا ما كانت تعتبره في منزلة والدها، وتكن له أعظم الحب. ومنذ ثمانية عشر شهرًا استقال «رودري» من الجيش، ورحل إلى «نيوسوث ويلز» في «أستراليا» ليشتغل بالزراعة هناك، وكانت ضربة قاسية نزلت على رأس «جاردي» (هو الاسم الذي يطلق على العقيد «كاروت برينين» خلال الرواية) الذي يعتز كثيرًا بالشهرة التي أحرزها في الخدمة العسكرية، ولم تدهش «رافينا» مما أقدم عليه «رودري» الذي يعتبر سليل أسرة عسكرية وعريقة يواكب تاريخها تاريخ مقاطعة «ويلز»، وكان لزامًا على «رودري» أن ينخرط مثل أبيه في السلك العسكري. وكانت «رافينا» تعرف أن «رودري برينين» يتنازعه دائمًا القلق المسيطر على حياته تمامًا. فبعدما تسلم وظيفته، اختار أن يقوم بمهمة خاصة في «قبرص»، وكانت كبرياء «جاردي» لا تعرف الحدود، إذ غضب عندما عرف أن ابنه سوف يمضي إجازته في الخارج، ولم يكد يرحل «رودري» إلى «قبرص» حتى ترك الخدمة العسكرية. راحت «رافينا» تحدّق عبر نافذة غرفة نومها، ويبدو أنها عادت تسمع مرّة أخرى وقع حوافر حصان على الحصى الذي يكسو ساحة الحديقة، وذكرها الوقع بيوم كانت تقف في المكتبة حين سمعت وقع حوافر أعقبه وقع خطوات حذاء تعبر الشرفة التي تقع أمام نوافذ المكتبة، وتذكرت نوبة الفزع التي تملكتها عندما رأت قوام «مارك دي كورزيو» يعتم زجاج النوافذ. حدّق كل منهما إلى الآخر عبر الزجاج، ثم دلف إلى المكتبة بلا دعوة، وقال لها:

– مساء الخير يا آنسة «برينين». وعندما انحنى لها انحناءة قصيرة، أحست بالتوتر الذي كانت تشعر به كلما قدم لتناول طعام الغداء في «رافنهول». كان شريكًا في الأعمال التي يمارسها «جاردي»، لكن هذه كانت المرّة الأولى التي التقيا فيها على انفراد. كان يعيش في الخارج بمنأى عن الجميع، ويعتبر أكبر سنًّا من جميع أصدقائها. وتكتنفه هالة من الغموض. كان معتدل القامة

ومع ذلك يوحي بأنه شخص طيع عندما يهل عليها، وكانت أسنانها تكز على شفتها السفلى بقسوة كلما وقع بصرها على الجانب الأيسر من وجهه الذي لفحه سعير النار، وكانت تغض بصرها عنه بسرعة، وكأنما ترى في وجهه صورة الشيطان، وقد اقترنت بها صورة الملاك. قال لها وهو يضغط على مخارج الكلمات:

– أرجو أن تكوني متمتعة بصحة جيدة يا «رافينا».

– أخشى ألا يكون باستطاعتك لقاء «جاردي»، فهو موجود الآن بالخارج. قال:

– ما جئت إلا لرؤيتك. نزلت كلماته كالصدمة المفاجئة، وتفحصت وجهه المتعالي الذي يوحي بأنه كان ذات يوم يتسم بالوسامة، أما الآن فتبدو الصرامة القاسية في ملامحه. واستطرد يقول:

– جئت عن قصد في هذه الساعة، لأنني أعرف أن وصيّك سوف يكون خارج المنزل. في هذا الأصيل يمارس لعبة البولنج مع صديقه القديم في الجيش «إيوين كيريو»، أليس كذلك؟

– إنني لا أكاد أعرفك يا سيد «دي كورزيو»، ولا أظن أن هناك شيئًا يمكننا أن نتبادل الحديث عنه. وواجهته بنظرات مستقيمة كاستقامة شعرها الأحمر الداكن، وثابتة كثبات عينيها الخضراوين. قال وعلى شفتيه ابتسامة ملتوية:

– ستعرفينني جيدًا في خلال لحظات. وأشار إلى مقعدين عميقين فوقهما وسادتان صغيرتان من الجلد وقال:

– من فضلك دعينا نجلس، وإلا ظننت أنك تودين الفرار مني. وتوترت أعصابها، وكان يحدوها حافز قوي يدعوها إلى أن تطلب منه مغادرة «رافنهول» في الحال، ولكنه إذ التقى بصره بعينيها، أحست أنه يقرأ أفكارها، فقالت له بحزم:

– أستطيع أن أمنحك خمس دقائق. إنني أعد الطعام و«جاردي» يحب أن يتناول عشاءه في موعده.

– من فضلك اجلسي يا آنسة «رافينا». امتثلت لطلبه وجلس هو بدوره، وتقاطعت ساقاه، وسقط الضوء على حذائه الجلدي اللامع. وكان سرواله وسترته من قماش التويد، ويدل مظهرهما على حسن حياكتهما، ولم يحمل معه سوطًا، مما يدل دلالة كافية على أنه يثق بنفسه في قيادة الخيول، والناس أيضًا، بلا سوط. سألها:

– هل تسمحين لي بالتدخين؟ فأومأت بالإيجاب، وراقبته وهو يخرج سيجارًا رفيعًا وقصيرًا من علبة جلدية. أشعله بعود ثقاب، وكاد اللهب يقترب من أنامله، قبل أن يلقي بالعود إلى المدفأة التي كانت خاوية، لأن فصل الصيف بدأ يزحف تدريجيًا ويغزو الطقس البريطاني.

– أشعر دائمًا بالبرد عندما أجيء إلى «إنجلترا»، فالشمس تشرق نادرًا، نسبة إليها في بلدي.

– حقًا يا سيد! ونظرت إليه بأدب، دون أن تحدوها أدنى رغبة في أن تسأله من أين أتى، وكانت تتمنى أن يفضي بما لديه ثم يرحل، فقد أزعجها قدومه، وقطع عليها وحدتها، وتمنت أن يرحل بأسرع ما يمكن. قال:

– مهلاً يا آنسة، وتمالكي زمام أمرك، واسألي نفسك لماذا قطعت عليك خلوتك في عقر دارك؟ قالت بصوت بارد:

– نحن غريبان وليس بيننا شيء مهم، لكن يبدو لي أنك تريد أن أصغي إليك. قال:

– جئت أروي لك حكاية يا آنسة «برينين».

– أنا منصتة لك يا سيد. من فضلك ابدأ قصتك.

– أنا أرمل، زوجتي الصغيرة «دوناتا» ماتت بعدما ولدت ابننا، فكرّست كل حبي لابني الصغير «دريستي». كان طفلاً نشيطًا، محبًا، حنونًا، ومنذ

ثمانية عشر شهرًا دهم سائق مخمور سيارتي حيث كان ينام «دريستي» في المقعد المجاور لي، وولى هاربًا، وترك سيارتي مقلوبة على ظهرها، والنيران مشتعلة فيها. وضعت «رافينا» يدها على خدها، وكأنها تتلقى صدمة عندما وقع بصرها على الندبة التي خلفتها النار على وجه «مارك». وواصل حديثه بخشونة:

– وقعت أنا وابني في شرك داخل السيارة، وبذلت جهودًا مجنونة لكي أحطم النوافذ لأحمل ابني بعيدًا عنها لكن.. يا إلهي لو أن المجرم توقف وساعدني، لكان في وسع ابني أن يعيش حتى اليوم. ولم تستطع «رافينا» أن تتحمل التفكير في أن الطفل يموت بهذه الطريقة فقالت:

– أوه... لا! واستطرد «مارك» يقول:

– انفجر خزان البنزين، وتطاير جسدي وهو يحترق ليسقط في حقل مجاور. فأسرع العمال لإطفاء النيران. كانوا يعملون على مبعدة، ولم يكن في وسعهم الوصول إلى العربة قبل انفجارها. كان السائق الطائش وحده هو الذي يستطيع أن يقدم إلينا المساعدة. وأمضيت عدّة أشهر في المستشفى. بعدها رحت أقتفي أثر الرجل، وعن طريق الجراج الذي أجرى الإصلاحات لسيارته عرفت أن اسمه «رودري برينين»، الضابط في الجيش البريطاني، والموفد في مهمة خاصة إلى «قبرص». وتألقت عينا «مارك دي كورزيو» بتأنيب مرير عندما استقرتا على وجه «رافينا». ثم كساهما بياض أشاع الشلل في شفتيها. قال:

– ابن وصيّك لقد تسبب في موت ابني. وكانت كلماته تملأ الغرفة ويشوبها الألم والغضب، ثم استطرد يقول:

– «دريستي» كان في الرابعة من عمره، وهو آخر هدية حب قدمتها زوجتي إليّ. ابني كان وريثي في أرضي، وعقاري، وكان سيحمل اسمي من بعدي. وموضع التشريف من أهالي «سردينيا» لعدّة سنوات. إن كلمة الشرف لها معناها لدى أهالي الجزيرة، وأعتقد أيضًا أنها تعني شيئًا لرجال من أمثال

العقيد «كاروت برينين». صاحت قائلة:

–«جاردي»؟ أنت تقصد أن تخبره بأن «رودري» كان مخمورًا وهو يقود سيارته وأنه تسبب في الاصطدام بسيارتك؟ لا تستطيع أن تفعل ذلك! ونهضت واقفة على قدميها. ثم أردفت قائلة:

– سوف تقتله! ونهض «مارك» واقفًا بدوره وقال:

– من تقاليد بلدي أن أسرة الآثم لابد من أن تدفع عوضًا عن الخزي والعار، وثمنًا عن الأضرار التي لحقت بالمجني عليه. إننا نؤمن بأن أسرة الرجل الذي اقترف خطأ عليها أن تتلقى اللوم بصورة ما. قالت:

– ولكننا نعيش في «إنجلترا». لم تكن «رافينا» تؤمن بأن أي رجل مهما أوذي في قلبه أو جسده يمكن أن يوجه اللوم إلى جندي عجوز قديم بسبب خطإ ارتكبه ابنه. وأردفت تقول:

– إننا.. إننا نحاول أن نغفر.. يا سيد. إننا لا نسأل أحدًا أن يدفع ثمنًا لخطإ ارتكبه.

– أنا من «سردينيا» وقد مكثت ثمانية أشهر أسأل نفسي: ما هو الثمن الذي يمكن لأحد أفراد أسرة هذا المنزل أن يدفعه، واليوم وجدت الجواب عن سؤالي.

– أنت تهدف إلى إيذاء «جاردي».

– ليس هذا ضروريًا يا آنسة «برينين».

– ولكنك أشرت.. وحدّقت إلى الرجل وتعلقت بالأمل، لكنها اصطدمت بنظراته العنيدة السوداء، إذ إنه من سلالة رجال يتصفون بالكبرياء والعاطفة والجسارة. قال «مارك دي كورزيو» عن عمد:

– «جاردي» في غنى عن معرفة أن ابنه شخص جبان.

– كيف..؟ ودقت الساعة لتعلن عن سكون معذب، وهي تنتظر منه أن يواصل حديثه، ولكنه كان هادئًا، مما دفعها إلى أن تراه في صورة النمر المتحفز

للانقضاض على فريسته. كان الصمت الذي ران عليهما يحمل في طياته إنذارًا بالهجوم. قال بهدوء:

– سوف تتزوجين بي، وستهبين لي ولدًا، بدلاً من الولد الذي فقدته. ولم تصدق «رافينا» أذنيها، وانعقد لسانها فلم تتكلم، لكن الكلمات تدفقت فجأة قائلة:

– لا يمكن أن تكون جادًا.

– لم أكن أكثر جدية كما هو الحال في هذه المرّة.

– هذا جنون! لا أستطيع الزواج بك. قال وابتسامة ملتوية ترتسم على شفتيه:

– أنت تظنين أنك لا تستطيعين الزواج بي. إن الحب وحده سوف يجبرك على الاقتران بي. قالت متسائلة:

– الحب؟ وشعرت بتيار بارد يسري في جسمها وعندما تحركت كانت تنشد الهروب من نظرته، ومن ندبته، ومن عينيه وحاجبيه الأسودين، ولكنه تقدم نحوها يعترض طريقها، وتحت وطأة الخوف استخدمت سلاح الاحتقار وهي تقول له:

– هل تتصور أنني أستطيع أن أحبك؟ قال ساخرًا:

– لا.. إن خيالي ليس بهذه القوة، ولكنك تحبين «جاردي»، ولن تقبلي إيذاءه أو أن تكوني سببًا في حرمانه من الحب الذي يكنه لابنه.

– أنت قاس يا سيد «دي كورزيو».

– ألم أعتد أن أكون قاسيًا يا آنسة، لكن رجلاً اسمه «رودري برينين» جعلني أكون قاسيًا. حدقت عيناه السوداوان إلى عينيها تشع منهما القسوة وعدم الرحمة، وحدثها قلبها بأن بيت «برينين» سيدفع الثمن لقاء الطريقة الأليمة التي فقد بها «مارك» ابنه الصغير. حاولت «رافينا» أن تتحدث إليه بتعقل مع أن نبضات قلبها كانت مضطربة. فقالت له:

– ما الذي تجنيه مني يا سيد لو أنك تزوجت امرأة لا تحبك؟ وماذا يحدث لو أنني أخبرتك بأنني أحب رجلاً آخر؟

– هل تحبين رجلاً آخر؟ قالت بتحدٍّ:

– أن أحب رجلاً آخر فهذا شأني. ونفض رماد سيجارة في المدفأة وقال:

– على العكس، باعتبارك زوجتي من واجبك أن تنسي هذا الرجل الآخر.

– هل تعني أنك تجبرني على الزواج بك؟ وأحست فجأة بالاضطراب، والحيرة، ولم تستطع أن تخفي شعورها فبدا جليًّا في نظراتها الخضراء. قال «مارك»:

– في خلال الأسابيع القليلة الماضية عرفت شيئًا عنك يا آنسة «برينين»، وخاصة عن مدى حبك الشديد للعقيد «جاردي» الذي يعد أبًا بالنسبة إليك. والحب يعتبر شيئًا جميلاً أقدره في المرأة، خاصة أنني من أهالي «سردينيا»، ولكنني أفضل أن يحل الولاء مكان الحب. فصاحت قائلة:

– جئت وأنت مستعد لأن تطأ بقدمك عنق أحدهم، وأنه حان الوقت لأخضع لك؛ لأنك تعرف أن «جاردي» تعرض لنوبة قلبية منذ فترة قصيرة وأن نوبة أخرى قد تودي بحياته.

– بل تبين لي أن وصيّك يعتبر شخصية جذابة، وصريحة، ولبقة في الحديث، وسيكون من الألم أن يبدد مشاعر أبوته على ابن لا يتمتع بالجاذبية. أحست «رافينا» أنها تنزع الشفقة من قلبها نحو صاحب الوجه المشوه، في الوقت الذي تشعر فيه بالألم نحو الطفل الذي مات في الحريق. قالت:

– إنك تزيد الموقف مرارة.

– هكذا نبني أحلامنا. فمن المؤسف أن أحطم أحلامك لأبني فوقها أحلامي. وضاقت جفونه وهو يتطلع إليها، وتوترت بشرته السوداء فوق فكيه وهو يستطرد قائلاً:

– ستكون هناك تعويضات.. يا «رافينا». شعرت بأصابع صارمة تطبق حول

رسغها، ففتحت عينيها لتجد «مارك دي كورزيو» قد اقترب منها، وشعرت بالكآبة عندما التقى بصرها بعينيه، وأجفلت من ندبته، ورأت النيران تتصاعد من خياشيمه والرغبة الشديدة تتراقص على فمه، وكانت «رافينا» قد عاشت حياتها لا تشعر بأي خوف، تتمتع بالمراوغة التي تسحر بعضهم وتشيع الاضطراب عند البعض الآخر، ولكنها الآن تقع تحت رحمة حبها لوصيها «جاردي»، وهي عزلاء من أي سلاح. قال:

– سأطلب من العقيد «برينين» الموافقة على زواجي بك، وأنت بدورك تزعمين أنك ترغبين في هذا الزواج كما أرغب فيه أنا. وأحنى رأسه وقبل يدها الباردة المضطربة، وأحست بأطرافها قد تجمدت عندما سمعته يتمتم:

– أنت ترتدين سراويل تشبه سراويل صبي، ويجب أن تفهمي أنني أريدك امرأة. وتحول عنها، وتناول وردة من الزهرية الموضوعة على المنضدة وثبتها في عروة سترته، وقال لها:

– أراك مثل الزهور، وفي «سردينيا» تنمو الزهور فوق التلال قبل أن تشتد حرارة الشمس، وبيتي يقع فوق ربوة كبيرة من الصخر على مبعدة من البحر. هل تحبين البحر يا آنسة؟ أجابت بحركة آلية:

– عشت هنا معظم حياتي، أحب القرية التي تحيط بـ«رافنهول»، إنني أنتمي إليها.

– آه، لكن عندما تتزوج امرأة، فإنها تتوقع أن تترك وراءها بيتها لتنضم إلى زوجها، أما بالنسبة إلى الرجل الآخر الذي تحدثت عنه فهل يعيش في هذه الناحية؟ قالت مغمضة العينين:

– أجل، لا تتوقع مني أن أتخلى عن كل ما أحب. أرجوك يا سيد. وعندئذ تطلعت إليه، ورأت أنه لن يتأثر بكلامها، ولم يكن من طبيعتها التذلل والتوسل، فابتلعت توسلها وتعلقت بكبريائها، وقالت:

– إذا أجبرتني على أن أفعل ذلك، فإنني أعدك بأن أكرهك بكل قطرة من

www.rewity.com

الدم السلتي (السلتي: نسبة لأحد أفراد عرق هندي قطن فيما مضى أجزاء واسعة من «أوروبا» الغربية) الذي يجري في عروقي. قال مبتسمًا:

– وأنا أيضًا يجري في عروقي دم سلتي يا «رافينا». كانت جدتي تنتمي إلى شعب «كورنوول» ولهذا السبب دعيت «مارك». هل تعرفين أسطورة «مارك» الذي كان ملكًا على «كورنوول»؟ حدّقت «رافينا» إلى عينيه وقالت:

– طبعًا أعرفها. زوجته أحبت الفارس الذي أتى بها من «أيرلندا»، وفضلته على أن تكون عروسًا للرجل الذي لا تستطيع أن تحبه. وألقى نظرة سريعة إلى النوافذ التي أسودت بالسحب المنذرة بهطول المطر، أو هبوب عاصفة. قال:

– للحب معانٍ كثيرة يا آنسة. إن الرجال في «صقلية» يصفعون وجه عروسهم في يوم زفافها، أما نحن – رجال «سردينيا» – فندخر هذه الصفعة للمناسبة التي تستحقها. والآن أظن أن الوقت قد حان للعودة إلى الفندق حيث أقيم، إنه فندق «الذئب والحمل» في هذه القرية العتيقة، وبالقرب منه تقع إسطبلات الخيل، ولكوني أحد أبناء «سردينيا» فقد ولدت على ظهر جواد. رافقته حتى اجتاز ساحة الحديقة إلى المكان حيث ترك الجواد، وكان جوادًا أسود اللون. واعتلى «مارك» ظهر الجواد بحنكة دلت على أنه رجل خبير بركوب الخيل، ثم قال لها:

– أرجو أن تسألي العقيد «برينين» أن يتيح لي فرصة رؤيته ظهر الغد. إن من دواعي التقاليد الرسمية أن يسأل المرء والد الفتاة أو وصيّها موافقته على زواج ابنته. ستكونين أنت موجودة هنا أيضًا لتضعي خاتم الزفاف في إصبعك. زمجرت العاصفة، واندفع الجواد بفارسه تجاه ضوء الغسق، ورفع الفارس يده ملوحًا وهو يقول «وداعًا». وأثارت حوافر الجواد سكون العاصفة كما أثار الفارس ضربات قلبها. انتابها إحساس بالقدر الذي أنشب أظافره في قلبها. فقد رأت أنها لا تستطيع أن تخبر «جاردي» بما فعله ابنه بـ«مارك دي كورزيو». إنها لا تستطيع إيذاءه، أو أن يتعرض لإحدى النوبات

القلبية مرّة ثانية لأن الطبيب قال: «إن «جاردي» يشعر بقلق على ابنه «رودري». أطفالنا هم الحب والهلاك الذي يدمر حياتنا». وفكرت «رافينا» في ابن «مارك» وأحست ببرودة تمسك بتلابيب عظامها، فإن الميتة الرهيبة التي لقي بها الطفل مصرعه نغصت حياة أبيه لدرجة أنه لم يعد يحس بأي شعور بالرحمة، على الأقل نحو أفراد عائلة «برينين». لابد من أن يدفع «برينين» الثمن. واختيرت هي بالذات لأنها وحدها تستطيع أن تقدمه إليه، وهذا الثمن هو طفل آخر... ابن آخر. تراجعت «رافينا» عن النافذة، وسارت إلى منضدة الزينة، ووقفت أمامها بثوبها الأخضر، يهزها التوتر، وراحت تقرأ مرّة ثانية البرقية التي تسلمتها في غرفة الاستقبال على أنها برقية تهنئة للعروس، لكن البرقية كانت في الواقع موجهة إلى وصيّها. فضتها وقرأت:

– الابن الضال يعود يا أبي، أصل بقطار الثالثة والنصف. الحب لك ولـ«رافينا». «رودري» في طريقه إلى البيت! وسحقت «رافينا» البرقية في قبضة يدها، ورأت أن من واجبها أن تلتقي به قبل أن يصل إلى البيت الذي تستعد لمغادرته هي و «مارك» لقضاء شهر العسل. وعليها أن تحذره بألا يبوح بسره، كما احتفظت به مطويًا عن «جاردي»، عزيزي «جاردي» الذي قدم سيفه إلى «مارك» لكي يقطع كعكة الزفاف. وابتسمت عندما مر بخيالها أنها ما تزوجت «مارك دي كورزيو» إلا لتنقذ «رودري». سيعرف «رودري» أن الصبي الذي قتله بتهوره واستهتاره هو ابن «مارك»، كما أن وصول «رودري» لم يكن متوقعًا من أحد، وقد يفضي بالحقيقة لأبيه. انتزعت «رافينا» حقيبة يدها، وتسللت من غرفتها، وتناهت إليها أصوات الضحكات الصادرة من الردهة، ومثل الشبح اتخذت سبيلها عبر طريق السلم الضيق الذي يقع عند نهاية الدهليز، وقادها إلى باب جانبي، وفي استعجالها نسيت غضب زوجها عندما يكتشف اختفاء عروسه المفاجئ. وعندما بلغت ساحة الحديقة كان الجو مشبعًا بضباب خفيف ينذر بالمطر. لم يرها أحد حينما دلفت مسرعة

إلى الجراج، لتستقل سيارتها وتقودها إلى الطريق، حتى بلغت ساحة محطة السكك الحديدية، التي وجدتها مهجورة، كما خيّم صمت مطبق على المكان، عندما سارت على الرصيف بدا القطار على مرمى البصر، وهو يسعى عند إحدى المنحنيات حتى بلغ المحطة الصغيرة، وملأها بضجيجه، وانفتحت الأبواب، وهرولت الأقدام تغادر القطار، وظلت «رافينا» ساكتة في مكانها حتى أقبل عليها شاب نحيل القامة، أسمر اللون، يحمل في يده حقيبة سفر من القماش، ويرتدي سترة جلدية فوق كنزة أحكمت فتحتها عند عنقه لتقيه برودة المطر. وضع «رودري» الحقيبة على الرصيف، وحدّق إلى وجهها مدّة طويلة، ثم قال ضاحكًا:

– «رافينا»، لقد كبرتِ. أصبحت كائنًا كاملاً، ساحرة صغيرة، خضراء العينين. مكثت «رافينا» صامتة ولم تعرف ما تفعله سوى التطلع إليه. وها هو يعود بعد افتراق استغرق عدّة شهور، ولم تستطع أن تصدق أن هذا الوجه المألوف لديها، وهذا الصوت الذي تعرفه، يخصان شخصًا متهورًا ومخمورًا وهو يقود سيارته. وقف بعيدًا عنها، فالأفضل له أن يتأملها من بعيد. وتفحصها مليًّا ببصره، وتأمل ثوبها الأخضر، ثم قال لها:

– تبدو عليك الأناقة.. أين أبي؟

– «رودري» تعال معي إلى السيارة، لابد من أن أتحدث إليك. واصطبغت عيناه بالقلق وسألها:

– هل أبي بخير؟ هل هو مريض ثانية؟ وهزت رأسها بالنفي قائلة:

– لا، إنه أحسن حالاً مما كان عليه في الأيام الماضية. إنه يعمل بعض الوقت في وظيفة بإحدى الشركات، في منصب إداري، كما أنه عضو في المجلس المحلي. وأنت يا «رودري» تبدو عليك الصحة. لم تلاحظ «رافينا» عليه أية دلالة على أنه يكابد أي شعور من تأنيب الضمير، ومن الجلي أن مدّة ثمانية عشر شهرًا قضاها في «أستراليا» ساعدته على أن يمحو من ذاكرته ما حدث

في «سردينيا». التقط حقيبته، والتفت ذراعه حول وسطها وراح يقودها إلى السيارة، وقال لها:

– أشعر بأنني لائق صحيًّا، أما أنت فيبدو على وجهك الشحوب. لم تعد عيناك تضحكان كعهدي بهما. هناك شيء خطأ. أليس كذلك؟ ولم تجب عن تساؤله، ودلفا إلى السيارة، وجلست وراء عجلة القيادة، وعندما أمسكت بها شعرت به يحملق إلى يدها اليسرى، ورأى خاتم الزواج وفوقه خاتم آخر من الزمرد الخالص، يتألقان في إصبعها. وفجأة قال:

– «رافينا»! واستدارت نحوه تقابل عينيه المصدومتين قائلة:

– أرسلت لك برقية أخبرك فيها بزواجي، ولم يكن لدينا أدنى فكرة أنك في طريقك إلى الوطن.

– تزوجتِ؟!

– هيّا بنا، وفي الطريق سوف أخبرك بكل شيء. كان المطر أشبه بالضباب يكتنف الهواء، وهي تقود السيارة خلال دروب المدينة الهادئة، وأخبرته بكل شيء، في صوت هادئ غير عاطفي. وجلس إلى جوارها مشدوهًا، أشعل سيجارة، وسحب نفسين، ثم سحقها وألقى بها خارجًا، وكأنه يكابد مرارة الصدمة. قال لها:

– لا يمكنك احتمال الأمر. سأخبر أبي بكل شيء. قالت ببرود:

– وتقتله؟ ألا تظن أنك ارتكبت ما فيه الكفاية؟ مات طفل صغير.. وكسا وجهه قناع من الألم والأسف المرير، وهو يقول:

– «رافينا»! أنا.. ظننت أنه يمكن نسيان كل شيء. إنني أخطو على درب الجبن مرّة أخرى.

– كل ما يجب أن تفعله هو عدم إيذاء «جاردي». هل تسمعني يا «رودري»؟

– ولكن، ما هو الثمن يا «رافينا»؟

– زواجي. وأوقفت السيارة عند منحنى هادئ. والتفتت تتطلع إليه وأردفت

تقول:

– سأعتاد العيش في أرض غريبة.

– مع رجل لا تحبينه؟

– هل قلت إنني لا أحبه؟

– أنا أعرفك جيدًا يا «رافينا»، عيناك لا تجمدان بل تبعثان الدفء ما دمت سعيدة، كانتا تتألقان يا «رافينا» في الأيام الخوالي. قاطعته قائلة:

– لا داعي للحديث عن الأيام الخوالي، لن تخبر «جاردي» بأي شيء عما حدث في «سردينيا». انتهى الأمر، ولن يعود الصبي الصغير إلى الحياة.

– أنت فتاة صغيرة حمقاء يا «رافينا»! هذا الزواج يجب أن يفسخ قبل أن يبلغ مداه. يا إلهي، هل تظنين أنني أدعك تعيشين مع رجل أجبرك على الزواج به؟ هل تعتقدين أن أبي سوف يتخلى عنك لو عرف الحقيقة؟ قالت:

– يجب ألا يعرف يا «رودري»، إن قلبه لن يتحمل الموقف. اسأل الدكتور «شاني». سألها وقد لاح وجهه في عينيها وكأن السنين تقدمت به:

– أبهذه الدرجة من السوء؟ سألته:

– وهل تعتقد أنك تستطيع الإفلات دون أن تنال عقابك؟ «مارك دي كورزيو» يكابد ندوبه على وجهه وفي أغوار نفسه. هل تسمعني يا «رودري»؟ إنه يكابد ندوبه. عندئذ انهار «رودري برينين»، وبدأ ينتحب كالطفل الصغير، فربتت شعره الأسود، وحاولت تهدئته، وتمتمت قائلة:

– يجب أن تمكث في فندق القرية حتى الغد. أنت لا تستطيع أن تقابل «جاردي» بهذه الحالة، ومن الأفضل أن تتوجه إلى البيت بعد أن أرحل أنا و«مارك» إلى «سردينيا»، هل تفهمني؟ هز رأسه، وعندما استعاد رباطة جأشه ثانية، أدارت المحرك، وقادت السيارة تجاه الفندق، ولكنها لم تجرؤ على أن تترك «رودري» وحده، كان اليأس مسيطرًا عليه، وهو في أمس الحاجة

إليها، فمكثت معه في ردهة فندق «الذئب والحمل»، وراحت تجاذبه أطراف الحديث. قال «رودري» شاحب الوجه:

– «رافينا»، سيقتلك عندما تعودين إليه. وتطلعت إلى الساعة المعلقة على الحائط، وشعرت بأصابع باردة تعتصر قلبها، ولأول مرّة فكرت في «مارك» وفي غضبه. قالت:

– أجل، يجب أن أعود، يجب أن تعدني يا «رودري» بأنك لن تفضي بشيء إلى أبيك. سيكون الأمر فوق طاقته. وثبت عينيه على وجهها وقال:

– وماذا عنك أنت؟ وقفت على قدميها، وتناولت حقيبة يدها ووشاحها، وقالت:

– سأكون بخير، كما يقول لي كل واحد اليوم. «مارك» ثري وصاحب قرى وله مكانة مرموقة في «سردينيا». وسوف أصبح سيدة بيته. وزمجر «رودري» قائلاً:

– كأن هذا كله هو ما يهمك. أنت الفتاة التي أعرفها جيدًا. أنت أبعد عن كل أنانية. قالت ضاحكة:

– لا تجعلني أبدو في صورة ملاك. وعلى فكرة «جونيث كيريو» ما زالت عزبة، وفاتنة كأغنية «ويلز». تذكر كيف كنت دائمًا ميالاً إليها. جاءت اليوم لتشهد حفل زفافي، وأشارت قائلة: «أليس من العار ألا يشهد «رودري» زفافك؟» وعندئذ هرعت «رافينا» تبتعد عنه وعن الردهة وعن الفندق لترتمي في أحضان الليل والمطر. قادت سيارتها عائدة إلى «رافنهول»، عيناها الخضراوان متجمدتان كحجر الزمرد الذي يزين خاتمها، وحدثت نفسها بأن في وسعها أن تتحمل أي شيء الآن، حتى غضب «مارك».

دخلت المنزل لتجده خاويًا من المدعوّين، ولم يبق شيء سوى الزهور المدلاة في زهرياتها، وقد تناثرت بتلاتها على أرضية القاعة، وعندما أغلقت الباب الأمامي وقع بصرها على شبح طويل يقف وسط الصالة الخافتة الضوء، وسعى

«مارك» آتيًا من المكتبة، وشعرت بوخزة من الخوف تسري في أعماقها، وهو يتقدم نحوها، في سترته السوداء. سألها غاضبًا وهو يهز كتفيها بيديه:

– أين كنتِ؟ ظلت صامتة وعندما اشتدت قبضة أصابعه على كتفيها، لم تتح له الفرصة لكي يدرك مخاوفها. وكان الهدوء الذي تكلم به أشبه بلسع السياط تنزل فوق جلدها، وبعد هذا الصمت قال:

– هيّا، أخبريني أين كنتِ؟ ستفسرين لي سبب غيابك، وسوف تنتحلين كذبة. كان علينا أن نخبر المدعوّين بأن وعكة ألمت بك، وأن رحيلنا إلى المطار قد تأجل. إنني أكره الخديعة يا «رافينا».

– هل حقًا تكره الخديعة يا «مارك»؟ تطلعت إليه، وتساءلت: «أي اسم آخر يمكن أن يطلقه الناس على زواجهما؟»، وأردفت تقول:

– لا شك في أنك سمعت عن الاضطرابات العصبية التي تعتري العروس في ليلة زفافها، سيطرت بعضها على نفسي، ووجدت أنه من الخير لي أن أنطلق بنفسي خارجًا لفترة وجيزة! طوى طرف كم سترته، وتطلع إلى ساعة يده، وقال:

– لكنك أمضيتِ عدّة ساعات، ومن حقي أن أعرف أين أمضيت هذه الفترة؟ قالت:

– كنت أقوم بجولة بسيارتي. كان ما تقوله نصف الحقيقة، ولكنها لم تستطع أن تواجه نظرات عينيه وراحت تتطلع إلى باب المكتبة المفتوح، وسألته:

– أين «جاردي»؟

– أخلد إلى النوم وهو جالس في مقعده متوتر الأعصاب قلقًا عليك. ومست هذه الكلمات عصبًا حساسًا عندها، وعندما شرعت في السير تجاه المكتبة أمسك «مارك» برسغها، وجذبها ثانية وأوقفها في مواجهته وسألها:

– هل أمضيت كل هذا الوقت مع رجل؟ كان من المحتم أن يحدس جزءًا

من الحقيقة، ولكنها لا تستطيع أن تخبره بالباقي. إنها لا تقوى على أن تفضي إليه بعودة «رودري» إلى «إنجلترا»، وأنها اصطحبته في سيارتها. سوف يدرك أن قاتل ابنه هو الرجل الذي تحبه، وأنها تورطت في زواج لا يقوم على الحب من أجل حمايته. انتابها شعور باليأس البارد بعث الشجاعة في أعماقها لأن تتحداه فقالت له:

– هل آن الأوان يا زوجي لأن تصفع عروسك؟ هل رأيت أنه من المذلة أن تختفي عروسك في ليلة زفافها، وأنها لا تمتثل بالخضوع لك حتى يبدأ شهر العسل؟ حملق إلى وجهها، وشعرت بقبضة أصابعه تهشم عظامها، وسألها معايرًا:

– كم يلزمك من الوقت حتى تعرفيني حق المعرفة؟ هل تتصورين حقًا أن ما أحبه في المرأة هو الخضوع فقط وليس شيئًا آخر؟

– يبدو أنك قدمت أعذارًا واهية للمدعوّين عن غياب عروسك، وهذا ما دعاهم إلى الدهشة.

– أتوقع أن دهشتهم منا ستلازمهم لعدّة أسابيع مقبلة، وسيتوهمون يا «رافينا» أنك ما تزوجت بي إلا من أجل مالي، وأين أجد المرأة التي يمكن أن تحب وجهًا مثل وجهي؟ التوت شفته بابتسامة شاحبة، وأمسك بذراعها الأخرى، ومال إليها، ولكنها جاهدت لكي تبتعد عن وجهه المشوه بالندبة. لابد من أنه قرأ في عينيها ما يخالجها، فقد كانت لا تحس بأية رقة في لمسته وهو يميلها فوق ذراعه حتى بدا شعرها وكأنه جناح من اللهب يجابه نسيج كمه الداكن. تمتم قائلاً:

– انظري مليًا في وجهي. يجب أن تعتادي عليه، لأنني لا أريد أن يكون زواجنا مجرد ظل. تركها وسار بعيدًا عنها تجاه السلم حيث استدار ينظر إليها، وقال:

– نمضي الليلة في «رافنهول»، ونرحل غدًا. وصمت قليلاً ثم انفجر ضاحكًا.

وبهدوء قال ساخرًا:

– لا حاجة بك إلى إغرائي بعينيك. إن شهر العسل سوف يبدأ في «سردينيا» وليس هنا. وتراخت أصابع يدها ببطء عندما غاصت فحوى كلماته في عقلها المتعب، وقالت:

– أنت تقصد. قال:

– سنطير غدًا جنوبًا. الليلة ستقفين صامدة على قدميك، فأنا لست شيطانًا كما أبدو لك. ولاح الإجهاد والدموع في عينيها وهي تتطلع إليه. لو أن لديها الشجاعة لأن تفضي إليه بأنها كانت بصحبة «رودري»، ولكنها كانت تخشى من ثورة غضبه، كما أنها لا تثق برحمته. وأخيرًا قالت له:

– أنا.. أنا.. يجب أن أذهب إلى «جاردي». إلا أنها لم تكد تبلغ باب المكتبة حتى استدارت لتلقي نظرة أخرى إلى «مارك». وعندما أسرعت في الدخول إلى المكتبة، تململ وصيّها في مقعده وفتح عينيه، وابتسم قائلاً:

– عزيزتي. وفتح ذراعيه لاستقبالها، واندفعت نحوه كالطفل، الذي يبحث عن الطمأنينة وألقت بنفسها على صدره، وتمتم قائلاً:

– «مارك» كان غاضبًا، لا تهربي ثانية يا عزيزتي. أنت امرأة متزوجة الآن. أنت تعرفين ذلك. وضغطت وجنتها على كتفه وقالت:

– أجل يا «جاردي».

– كنت دائمًا فتاة ذات بصيرة نافذة، أليس كذلك؟ هل أنت متأكدة أنك سعيدة مع هذا الرجل؟ وأدركت نبرة الحرص والشك في صوت «جاردي». وفي الحال رأت أنه من الضروري أن تبعث الطمأنينة في نفسه فقالت:

– وأي شيء آخر تنشدة الفتاة عندما تتزوج برجل؟ وابتسمت ابتسامة عريضة في وجه الذي تحبه وتحترمه كثيرًا، ثم قبلته في وجنته، وحدثت نفسها بأن غدًا سيعود «رودري» إلى البيت وإلى أبيه. وسيكون في ذلك عزاؤه عندما يجتمع شملهما!

- 2 -

الدروب عبر الجبل ضيقة، ملتوية حول نفسها، وبدت السيارة وكأنها تحيد عن مسارها، لتستقر في أعماق البحر. وكانت الرياح تلطم زجاجها مما أضاف مزيدًا من الإحساس بخطر داهم، خاصة أن قيادة سيارة على حافة أرض غريبة، ومتجهة إلى غاية مجهولة، كان في نظر «رافينا» ضربًا من الخيال. جلست «رافينا» صامتة في المقعد المجاور قرب زوجها، وأغمضت عينيها حتى لا ترى المنحنيات التي تتلوى عبر الطريق، ويبدو أن عاصفة الصيف اقتفت أثرهما منذ أن غادرا «بريطانيا»، وظلت ملازمة لهما طوال الطريق. قال «مارك» بعد مضي ساعة من الصمت:

– آسف لأن صورة الجزيرة التي أفسدتها مياه الأمطار هي أول منظر يقع عليه بصرك. وفتحت «رافينا» عينيها فوقع بصرها على الصورة الجانبية لوجهه التي حدد معالمها ضوء العاصفة، فشاهدت ألسنة النار قد تركت بصماتها على صفحته، وبعد صمت وجيز استطرد يقول:

– يعتبر قصر «كاستل ديل توري» واحدًا من أجمل معالم «سردينيا» عندما تلقي الشمس بأشعتها عليه، ويعبق الهواء برائحة الليمون. كان يتحدث إليها كواحد من ممثلي شركات السّياحة، وهو يحاول أن يقنعها بأنها تحتاج إلى الشمس فقط لكي تعشق مدينته. تساءلت هل يمكنها أن تحب هذا المكان النائي الذي يقع بعيدًا عن وطنها وعن «جاردي» الذي استأجر مديرة بيت لترعى شؤونه؟ بذلت «رافينا» جهدها لكي تقاوم حنينها إلى الوطن الذي راح يؤرق مضجعها، وتطلعت إلى يد «مارك» وهو يدير عجلة القيادة، ثم نقلت بصرها إلى آثار الندوب التي انحفرت غائرة في جلده الأسمر. وكان «مارك» يركز انتباهه في الطريق عندما قال:

– لابد من أنك تشعرين الآن بالإعياء، لكن بعد كيلومتر أو أكثر ستلوح لك

«كازاتشيبريسو» وستشاهدين أشجار السرو التي تعلو في كبد السماء كالمشاعل وسط الأمطار. ومن المحتمل جدًا أن يصفو الجو غدًا وتشرق الشمس وتحت «الكازا» تقع بساتين الليمون التي تقترب من البحر، والكروم المزروعة على جوانب التل. سألته بأدب:

– هل تمتلك حصة من الأرض؟ وشعرت بأنه يبتسم باستياء، وأجاب:

– مساحة جيدة. أنا معروف هنا باسم «بارون الأرض»، والفلاحون الذين يعملون في أرضي هم أحفاد الفلاحين الذين عملوا عبر السنين مع أجدادي. الأحداث لا تتغير سريعًا في «سردينيا» لأن أسلوب حياتنا ما هو إلا صورة مستمرة للماضي. قالت وقد انعقدت أصابعها على حقيبة يدها، وتشبثت بالجلد:

– أنت تقصد النظام الإقطاعي وأنت نموذج للإقطاعيين. كلمتك هي القانون في هذه الجبال، والناس يحنون هاماتهم إجلالا لك. قال:

– لا ينحني أي سرديني لأحد. أنا أحمل اللقب فقط، ولكنني لا أحصل على حصة من إنتاج الأرض أكثر مما يحصل الأشخاص الذين يفلحونها.

– وأنت لك العسل، أليس كذلك؟ أم أن زوجتك وحدها سوف تستخلص العسل لك؟ ألقى «مارك» نظرة سريعة إليها وسألها:

– عم تتحدثين؟

– في الأيام الغابرة كان الإقطاعيون في مقاطعة «ويلز» يفوزون بنصيب الأسد من كل شيء، ويستخلصون العسل للحاكم، ويقومون بتقديمه إليه في قصره الذهبي.

– إذن سوف تستخلصين العسل يا «رافينا» لتقديمه قربانًا لسيد قصر السرو. قالت ضاحكة:

– أجل يا «مارك»، سأقدم ثيابي وشعري كما يفعل أي عضو سردينيي، فإنني لا أملك سواهما.

– سيناديك أهلي باسم «بادرونسيتا»، أي «السيدة الصغيرة». وأشاحت ببصرها عنه، وتطلعت زائغة البصر عبر النافذة المجاورة لها. وراح يتحدث إليها وهو يعتقد أن عروسه سعيدة، وفي اشتياق إلى رؤية بيتها الجديد. ويبدو أنه كان لا يأبه كثيرًا أنها ستعاني الوحدة، والخوف من وجودها في أرض غريبة مع رجل لا يحبها، ولا يهتم بامرأة لا تكن له الحب. كانت ترى أن الحب وحده كفيل بأن يبعث في المرء الشجاعة، والرغبة في رؤية الأشياء الجديدة، ومقابلة حب استطلاع الناس، ومواجهة عداوتهم. كانت «رافينا» هي الزوجة الثانية التي تأتي إلى قصر السرو، وحدثتها غريزتها بأن «دوناتا» كانت جذابة ومحبوبة من الجميع، وتتميز بالشعر الأسود والعينين الناعستين كفتيات الجنوب. استدارت العربة عند إحدى منحنيات الطريق الجبلي، ولاحت في الأفق أشجار السرو السامقة، وبرجا منزل «مارك» اللذان يبرزان عاليًا فوق الصخور المطلة على البحر. كان القصر يبدو كقلعة مظلمة كئيبة، وأشجار السرو على هيئة حراس حوله. ومَضَ البرق بصورة متقطعة عندما أوقف «مارك» السيارة، ورأت «رافينا» درجات سلم حجري، وعددًا من المصابيح الحديدية معلقة على الجدران التي تحيط بالباب الأمامي المرتفع. أطارت الريح خصلات شعرها، وملابسها وهي تغادر السيارة وسارت حتى وقفت عند أولى درجات السلم. ويبدو أنه لم يكن مناسبًا أن تصل إلى هنا في أثناء هبوب العاصفة. انضم إليها «مارك»، ولاحظت قطرات المطر تعلو صفحة وجهه وبريقا يتلألأ في عينيه. قال لها:

– أهلا بك في بيتك الجديد. وقبل أن يلمسها هرعت تصعد درجات السلم لتقف تحت المدخل هربًا من المطر. كانت ترتجف اضطرابًا، وتحرص على ألا تكشف عن اضطرابها. قالت له وهو يقرع الباب:

– أستطيع أن أدرك سبب عدم وجود مفتاح للباب في حلقة مفاتيحك. هل الأمور هنا في «الكازا» تأخذ مظهر الفخامة الملكية؟ قال «مارك» وهو يتأمل

الباب الكبير المثبت في الجدران السميكة للبيت:

– البيوت تبنى هكذا عاليًا حتى تتحمل موجات الرياح الشمالية العنيفة الباردة، وموجات الرياح الشرقية الجافة المثقلة بالغبار. ولا شك في أن الأبراج أقيمت لتعطي القلاع مظهرًا يشيع الرعب في قلوب القراصنة الذين ينزلون في الساحل تحتها. وقديمًا قالوا إن بيت الرجل هو قلعته التي توفر الحماية لعماله وأهل بيته. وأدركت من طريقة حديثه أنه يجد سعادة وفخرًا بالبيت القديم المتين البنيان الذي عاشت فيه أجيال متعاقبة من أسرته، وأحبته أشدّ الحب، ولهذا السبب كان يتوق إلى إنجاب ولد يكون وريثًا لهذه القلعة. وفي هذه اللحظة انفتح الباب، وسارت «رافينا» إلى القاعة الكبرى حيث كان وميض البرق يكشف دروعًا عربية، وأثاثًا عتيقًا، ولوحات عائلية معلقة على الجدران المطلية باللون البرنزي المتوهج كقطع الخشب المشتعلة في المدفأة. صاحت «رافينا» قائلة:

– نار! صيحة ارتياح من شخص يكابد البرد في داخل جسده وخارجه، وأسرعت لتركع فوق السجادة الصوفية، وتشابكت أصابع يديها طلبًا للدفء، وطقطقت الأخشاب المشتعلة التي كانت الظاهرة الوحيدة المرحة في تلك القاعة الكبيرة، ثم سمعت صوتًا يتساءل:

– إذن.. هذه هي العروس؟ جاءت الكلمات فجأة من بين الظلال فالتفتت «رافينا» واجفة القلب، ورأت شخصًا يجلس في مقعد بجوار المدفأة. كان للمقعد ظهر مرتفع، والنقوش تزين مسانده وأرجله، وكان الشخص الذي يحتل المقعد امرأة عجوزًا ترتدي ثوبًا أسود، بينما استراحت قدماها على مسند القدمين. استقرت عيناها على «رافينا». عينان سوداوان، لا تشع الابتسامة فيهما راحتا تتأملان وجه الفتاة الشاحب، وعينيها الخضراوين وشعرها الأحمر الذي بلله المطر. وتطلعت «رافينا» إلى «مارك»، ورأت سمات الكبرياء في ملامحه وهو واقف إلى جوار المدفأة، وامتدت يده ليساعدها على

النهوض فتوهج خاتمه، وسقط الضوء على ندوب وجهه، فأجفلت «رافينا» من لمس يده. ونهضت واقفة على قدميها دون الاستعانة به، ولم تحاول أن ترى القسوة التي ارتسمت على فمه، فقال لها:

– دعيني أقدم إليك جدتي «دونا جوكاستا ليوناردي». عادة أدعوها «لانونا» عندما أكون هادئ المزاج. تمتمت «رافينا» بالتحية التقليدية، وكانت قد تمنت أن تلتقي بجدة «مارك» إذ اعتاد أن يتحدث عنها بحنان. فهو سلتي، وبينها وبينه شيء مشترك، ولو أن «دونا جوكاستا» تتحدث الإنجليزية بطلاقة إلا أنها لم تكن على مودة معها، ولا شك في أنها تفكر هذه اللحظة في عروس «سردينيا» التي أتى بها حفيدها إلى البيت منذ ست سنوات مضت. وكان على «مارك» أن يبتسم، وتألقت عيناه عندما طلب شرابًا، وقال:

– إنه من الواجب احتساء نخب لهذه المناسبة السعيدة. ونهضت «دونا جوكاستا» واقفة على قدميها، فجلجل ثوبها الحريري الأسود، مثل أوراق الشجر الجافة وقالت:

– هل تسمحان لي بالانصراف، لأنني أمضيت اليوم بطوله في الإشراف على إعداد غرفكم، وتنظيف البيت. أنا متعبة يا «ماركوس»، وسأتناول وجبة خفيفة في غرفتي قبل النوم. قال بصوت يشوبه غضب هادئ:

– إن تناول كأس معنا لن يستغرق وقتًا طويلاً. وتطلعت جدته نحوه، ثم إلى «رافينا»، ولاحت ومضة من الحقد في عينيها عندما استقرتا على «رافينا». وقالت:

– لم تتقدم السن بي كثيرًا حتى أنسى أن العشاق يحبون الانفراد، وأنا واثقة بأن عروسك تفضل أن تستحوذ عليك لنفسها. وسارت الجدّة نحوه، وربتت خده المشوه بالندوب، وجالت يدها المتألقة بالخاتم فوق صفحته لتشاهد «رافينا» ملامحه مرّة أخرى، ورأت الجدّة في عينيها نفورًا من لمس «مارك»، لذلك قررت أن تتركها وحدها في صحبته حتى تعلّم نفسها أن تكون تحت

رحمة طلباته. وأحست «رافينا» بالبرودة تسري في أوصالها، حتى وهي قريبة من دفء النار، حين قالت السيدة العجوز لها:

– ليلة طيبة. أرجو أن تجدي غرفتك مريحة، حجرة العروس غرفة كبيرة لكن لا واحدة من عرائس أسرة «كورزيو» كانت تشكو منها. رافق «مارك» جدته حتى فسحة واسعة تقع عند أول درجات السلم بينما وقفت «رافينا» تتطلع إلى النار. الدخان المتصاعد من الخشب، والسناج يتطاير عاليًا مثل تطاير اليراع في جنح الظلام. وتنبهت «رافينا» عندما شعرت بيدي «مارك» فوق كتفيها، عندما انضم إليها وهي مستغرقة في هذا الجو الصامت. وقال لها:

– لا تتبرمي بما قالته «لانونا».. إنها سيدة عجوز من أهالي «سردينيا»، وهي غاضبة لأنني لم أتخذ زوجة من بنات جنسي. فأهالي «سردينيا» متعصبون لعشيرتهم ويتصفون بالكبرياء. قالت «رافينا» بصوت هادئ:

– يبدو لي يا «مارك».. أن زواجك بي جلب الشقاء إلى قلوب ثلاثة أفراد!

وأدار وجهها لمواجهته، ورحلت يده اليسرى من كتفها حتى استقرت على رسغها، وسألها:

– ما الذي يدعوك إلى الظن بأنني شقي؟ بالتأكيد أنت تعرفين يا «رافينا» أنني أجدك فتاة جذابة، بشعرك الأحمر، وبشرتك البيضاء، وعينيك البحريتين، أما عن سحرك... وحدّقت إلى وجهه. وأحست كأن قناعًا أسدل على وجهها فحال دون رؤيته. فسألته:

– ألا تجعل لمشاعري حسابًا لديك؟ هل أنا مجرد فتاة جذابة بالنسبة إليك؟

انفجرت شفتاه وتلألأت أسنانه وسط وجهه الأسمر المشوه بالحريق واستدار عنها وهو يقول:

– أنت إنسانة تدخل السرور إلى القلب يا سيدتي، ها هو ذا «رينزيو» قد أقبل لنا بالشراب. سوف نحتسي نخبًا. وسنشعر بالدفء يسري في عروقنا.

وصب الشراب من قنينة فينيسية في كأسين ثم ناولها إحداهما، وأحست ببرودة الكأس في يدها، أما الشراب فكان ذهبي اللون. ورفع «مارك» كأسه وقال بلهجته الإيطالية:

– تحياتي. ونظرت «رافينا» إليه برزانة، وقد انعقدت خصلات ملتوية عند سوالفها وقالت له ببرود:

– لم أتعود بعد لغة أهل «سردينيا». قال:

– سأعلمك كل شيء عن أهل «سردينيا». كانت عيناه تحملان معنى عميقًا، وهو يقرب الكأس من شفتيه، ثم أردف يقول:

– لا يمكن أن يتحقق التفاهم يا «رافينا» دون نشوب معركة أو اثنتين، هذا ما يدفئني. جالت «رافينا» ببصرها على الجدران، وتطلعت إلى صور الأشخاص الغريبة عنها، وأبصرت الظلال تلقيها الشمعدانات، وفسحة السلم الكبير المؤدي إلى البهو، ثم عادت لتقول له:

– إن ما يدفئني حقًا مختلف تمامًا يا «مارك»؛ لأنني لست ممثلة كُتبت لها عواطفها لكي تؤديها. أنا هنا معك ومع هذا لا أشعر بأية عاطفة. فسألها ساخرًا:

– ولا حتى الخوف. وتحولت ببصرها من سلم الغرف العليا، إلى غرفة العروس التي سوف تقاسمه النوم فيها، وقالت له:

– هناك عواطف أقوى من الخوف يا «مارك». احتسى نصف ما في الكأس، ثم قال:

– أظن أن العاطفة المخادعة أقوى من الخوف، لكن لامبالاتك تسعدني إلى أبعد حدّ. وفي لحظة أرادت أن تقول له إنها تحس باللامبالاة نحوه، لكن هذا الشعور لم يكن صحيحًا؛ لأنها كانت تحس بقوامه ولونه الأسمر وكبريائه كلها ممثلة في وقفته أمام المدفأة التي يضمها هذا البيت المطل على البحر، بل إنها كانت تحس بعظمته... فقط عندما كان يشيح جانب وجهه المشوه

بالندبة بعيدًا عنها. قال:

– انتهي من احتساء كأسك حتى نتوجه إلى غرفتنا. أنت تحتاجين إلى إنعاش جسمك بعد هذه الرحلة الطويلة، وقبل أن نتناول طعام العشاء. واتخذا سبيلهما إلى فسحة السلم، ورأت وجود عدّة غرف وممرات تؤدي إلى أجزاء مختلفة من المنزل، لكن «رافينا» أحست بأنها ليست سيدة القصر، وشعرت بأنها شخص غريب لا يشعر بالألفة في بيته. قال «مارك» وهما يرتقيان السلم متجهين إلى البهو:

– جناحنا يقع في برج الفارس. ثم استدارا شمالا وسارا في ممر يقود إلى سلم أضيق، وأحست «رافينا» وهي تسير إلى جواره بأنه لم يقم مع «دوناتا» في جناح الفارس، وإنما عاشا في الجناح الآخر. فسألته:

– ماذا تسمي البرج التوءم؟

– برج «المادونا»، أطلقت عليه هذا الاسم إحدى جداتي وهي فتاة حالمة من «توسكانا»،وإن كان أهل «سردينيا» لا يستسلمون لمثل هذه الخيالات الرومانسية، لأنهم أناس عمليون. كانت هناك نافذة تجاور سلم البرج وتسمح بدخول ومضات البرق التي كانت تهز أعصاب «رافينا»، وربما كان البرق والظلال المتراقصة سببًا في أن تسرع بارتقاء الدرجات حتى كادت تقع على وجهها، لكن «مارك» كان أسرع منها إذ مدّ يديه ليحفظ توازن جسمها، وفجأة التفت ذراعاه حولها، فقاومته «رافينا» وهي تحاول الفرار منه... مرددة:

– لا..لا..لكنه أمرها قائلاً:

– اهدئي، تماسكي. أليس من التقاليد المتبعة أن يحمل العريس عروسه ويعبر بها عتبة الغرفة؟ وفي خطوة طويلة حملها وعبر بها عتبة غرفة النوم حيث كانت المصابيح مضاءة، والحطب مشتعل في المدفأة، والدفء يشيع في أرجاء الغرفة وأثاثها. وظل «مارك» حاملاً «رافينا»، ووجهها على مبعدة من شفتيه

اللتين لا يبدو عليهما أية ملامح من الرحمة. قال لها:

– أنت تنظرين إليّ وكأنك تزوجت شيطانًا... قالت:

– أنا متعبة يا «مارك»، وأنت دائمًا تعذبني. وأسبلت جفونها كأنها لا ترغب في رؤية نظراته، ومع ذلك كانت تحس بعينيه تتمليان شعرها، وبياض بشرتها، ولأول مرّة في حياتها أدركت كيف تبدو أمام رجل، وكيف جعلها تشعر بأنها مسلوبة الإرادة. ولما كان هذا الرجل هو «مارك»، فإنها كانت تود أن تنشب أظافرها في جسمه حتى يشعر بالألم. قالت له بوحشية:

– كم أكرهك، وأكره هذا المنزل، وهذه الجزيرة التي تفخر بها. أحجار مبنية على أحجار، وأنت لا تقل تحجرًا عنها. قال ساخرًا:

– مجرد كلمات، هل تظنين أن مجرد كلمات تستطيع أن تجرحني؟ قالت له:

– وهل تظن أن شيئًا يمكن أن يجرح حجرًا... إلا الحجر؟ ولا يوجد شيء أكثر برودة من امرأة باردة. قال:

– مجرد وعود من شفاه ناعمة. ثم أردف يقول:

– إنني لم أتزوج بك من أجل كلمات ناعمة، أو نظرات ناعسة، أو خضوع مستأنس وإنما تزوجت بك لأنني أريد طفلاً، بكل الروح والمرح الذي كان يتمتع به «دريستي». وأحست في هذه اللحظة أنه يتجرع الألم، وأن العذاب القاسي هزه حتى دفعه إلى أن ينزلها من على ذراعيه، ويبعدها عنه بقوة، والقسوة تكسو وجهه المشوه بالندوب. قال:

– أحضروا لك ماء الاستحمام. وأشار إلى أباريق نحاسية موضوعة على عتبة الحمّام، ومناشف دافئة، وستارة شفافة أسدلت أمام الحمّام. ثم أردف يقول:

– أسباب الراحة هنا ضئيلة إلى حد ما، ولكنك ستشعرين بالدفء قرب

المدفأة. دبرت «لانونا» وصيفة صغيرة لخدمتك، لأن أغلب الخدم هنا من الرجال. وهذه الليلة يمكنك تدبيرها بنفسك. قالت «رافينا» بهدوء:

– لا حاجة بي إلى وصيفة. أنت تعرف أنه ليس لدينا أية واحدة في «رافنهول» وأنني اعتدت أن أدبر أموري بنفسي.

– أنت الآن في «كازاتشيبريسو»، والموقف متغير. سوف أخبر «رينزيو» بأن يجلب فتاة صغيرة من فتيات القرية. أنت «البادرونسيتا» ولابد من أن يكون لك وصيفة خاصة تهتم بملابسك وتصفف شعرك. قالت له وهي تنظر إليه بنظرات متحدية:

– ألا يعجبك شعري كما تراه... يا سيدي؟

– ستعدينه كما كان بالأمس وهو تحت طرحة الزفاف. وسوف ترتدين ثوبك المخملي الذي شاهدتك به حينما قدمت لتناول الطعام في «رافنهول» أول مرّة. هل أحضرت الثوب معك؟ وراودتها الرغبة في أن تخبره بأنها نسيت الثوب في «إنجلترا»، وقبل أن تتفوه بكلمة سار «مارك» إلى دولاب ملابسها وفتح أبوابه الكبيرة. ورأت ثيابها منسقة على المشاجب وبدا لها الثوب المخملي الذي رفعه «مارك» من مكانه. وأحست بأن إصرار «مارك» على ارتداء هذا الثوب يعد تدخلاً سافرًا في استقلالها الشخصي. وأرادت أن تنتزع الثوب من يديه، وأن يدعها وحدها. قالت له:

– حسنًا، لن أرتدي الثوب. وضع «مارك» الثوب على الفراش. وقال لها:

– سأكون في الغرفة المجاورة. وسأدعك وحدك حتى تستعدي لحفل العشاء الذي أعد خصوصًا لزفافنا. توارت وراء الستارة، ونضت ثيابها عنها، وراحت تستمتع بدفء الماء الساخن، الذي هدأ أعصابها المضطربة. وبعدما استحمت لفت جسمها بمنشفة كبيرة، وغادرت الحمّام، وسارت حتى وقفت أمام منضدة الزينة وشد انتباهها علبة من القطيفة مفتوحة، تحتوي على قلادة زمرد مزينة بسلسلة مرصعة بالألماس. سرت رعدة في بدنها وخشيت من

أن يكون «مارك» دخل الغرفة في أثناء استحمامها ليضع العلبة على منضدة الزينة وشاهدها من خلال الستارة الشفافة. وكلما فكرت قليلاً وجدت أن من حقه أن يأتي ويخرج من غرفة نومها كما يشاء، وأن يقدم إليها حلية إعجابًا بها. ورأت أن القلادة تتمشى مع خاتمها وثوبها المخملي، وشعرها الأحمر. أشاحت بوجهها عن الهدية، وارتدت ثيابها بيدين باردتين كالثلج وعقدت شعرها في تصفيفة كالتاج. وسمعت «مارك» مرّة ومرتين يسير في الغرفة المجاورة، وثارت أعصابها عندما قرع الباب يستأذن في الدخول. فأذنت له ودخل وهو يرتدي ثياب السهرة، وبدا في قوامه الفارع رجلاً بل سيدًا للموقف. قال:

– آه.. أنت مستعدة.. تقريبًا! وتطلع إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فرأى بشرتها البيضاء تبرزها فتحة ثوبها المخملي، وشعرها الأحمر الذي يزين رأسها، وعينيها الخضراوين. وأحست «رافينا» بإغماءة خفيفة عندما رأت ومضة إعجاب في نظراته. تقدم «مارك» والتقط القلادة من علبتها المخملية. واستدار حتى وقف خلفها وقال:

– دعيني أثبت القلادة حول عنقك. وتطلع إلى المرآة، وسلط بصره على نظراتها، وأردف يقول:

– تعجبك القلادة يا «رافينا»، أليس كذلك؟ قالت بصوت بارد:

– إنها رائعة للغاية. إنها جزء من ميراث العائلة وأنا أخذته، أليس كذلك؟ فقال لها:

– أنت أخذته لأنني أعطيته لك. هناك قرط يتمشى معها، ولكنك في الوقت الحاضر صغيرة على ارتدائه. أذناك صغيرتان، وهما جميلتان في حد ذاتهما، ويجب ألا نفسد جمالهما بأقراط ذهبية ثقيلة. أنت فاتنة وكل عرائس أسرة «دي كورزيو» ترسم لهن صور زيتية في السنة الأولى من الزفاف، وسوف أستدعي الرسام «ستيليو فابريزي» ليرسم لك صورة. لم تجد «رافينا» أي

جدوى في المعارضة. ولو قدر لها أن تعيش في «سردينيا» لتمنت أن تفجر الصخور التي يقوم عليها القصر، والبحر الذي يقع تحته. وفي هذه اللحظة راودتها الرغبة في أن تسبح، لكن خالجها شعور بالبكاء، وهي تتقدم «مارك»، وتخلف وراءها غرفة نوم الزفاف.

* * * * *

أعدت مائدة العشاء وصفت عليها أطباق لحم السمان، والفاكهة وكؤوس الشراب. وفي وسطها وضعت الزهور، وعلى ضوء الشموع أقبلت «رافينا» على تناول الطعام بشراهة، ولم ترفض كأسا ثانية قدمها إليها «مارك» بعثت الدفء في جسدها، وأصابت عقلها بخمول، وكان ذلك مقبولاً مع الغربة التي تحيط بها. تحدث «مارك» إليها عن الجزيرة وتاريخها حتى تركا المائدة، وتوجها للجلوس بالقرب من المدفأة، وجلس «مارك» على أريكة كبيرة بينما راحت «رافينا» تصب له فنجان قهوة. قال لها:

– الأمسيات بدأت تميل إلى البرودة. ناولته فنجان القهوة وهي تتجنب لقاء نظراته، وقالت له:

– أحب النار، إنها تجعل الغرفة تبدو في صورة بهيجة. قال بالإيطالية:

– حسنًا. وشعرت بنظراته تحدّق إليها وهي تجلس على مقعد بمساند، اللون الأحمر المتوهج يشابه لون الأريكة. سألها:

– هل تبعث هذه الغرفة على البهجة؟ وتطلعت حولها، وشاهدت الشموع ما زالت مشتعلة، ورأت لوحة جص في السقف تصور عاشقين من العصور الوسطى تشابكت أيديهما، والحوريات ترقص مع آلهة الإغريق. كانت الغرفة تتسم بالوثنية، مثل الرجل الذي يراقبها برأسه الأسود الذي أسنده إلى ظهر الأريكة الحمراء. قالت:

– لابد من أننا نعيش في قرن آخر غير هذا القرن، كأن الزمن توقف هنا في «كازاتشيبريسو»، وأن أيام الثأر والمبارزات وصيد الصقور ما زالت تعيش بيننا.

– هل يضايقك ذلك؟ ربما تمتين بصلة لتلك الأيام. لديك سمة العصور الوسطى التي قيل إنها تعود لتحيا على بعض الوجوه. إنها سمة من الحزن والكآبة. سألته:

– هل لي أن أبتسم يا «مارك»؟ وبينما كانت «رافينا» تسأله، التقت نظراتها بعينيه الحالكتي السواد. كان وثنيًا، حتى بات لا يكترث كثيرًا بمشاعر عروسه. نزعة الثأر بدأت تموج في أعماقه ولن يسلم شرفه حتى يدفع «برينين» ثمن موت «دريستي»، ويطفئ لهيب الألم الذي يحرق قلبه. وتحولت نظراتها إلى النار، واللهب الذي راح يسري في أطراف الحطب، وفكرت في أن الهرب من «مارك» كان في متناول يدها، إذ كتب لها «رودري» ذات مرة رسالة بعث بها من «أستراليا»، متوسلاً إليها وإلى أبيها أن يلحقا به هناك، لأنه أصبح يفتقدهما كثيرًا، لكن «نيو ساوث ويلز» كانت تبدو لها نهاية العالم، وأن الرحلة منهكة لـ«جاردي». سألها «مارك»:

– هل أنت قلقة على «جاردي»؟ انتابها توتر مفاجئ. أليس غريبًا أن «مارك» يقرأ أفكارها؟ أجابت بصوت يشوبه الألم:

– أنا.. أنا افتقدته.

– هذا شيء طبيعي.

– أوه... «مارك». وأحست كأن سكينًا يغوص في قلبها، وأردفت تقول:

– هل تهمك مشاعري؟ وهل يقلقك أنني أشعر بالأسى لبعادي عنه؟ إن عزائي الوحيد هو وجود «رودري» معه. وخيّم صمت مطبق عقب أن تفوهت بكلماتها، وتطلعت إلى «مارك» ورأت في عينيه تطاير الشرر، فقال:

– إذن «رودري برينين» موجود في «رافنهول». إنه «برينين» الذي توجهت

إليه لمقابلته عقب زواجنا مباشرة، وكان يجب عليك رؤيته! كان من المحتم عليك تحذيره لكي يكون بعيدًا عن طريقي. قالت ببأس:

– أجل، أرسل برقية وكان لزامًا عليّ أن أراه. كنت خائفة للغاية. سألها:

– خائفة على عنقه الثمين؟ كانت عيناه تتألقان بوميض يجذبها إليهما ويغرقها في بحرهما، فقفزت واقفة على قدميها، وفي قفزتها اقترب طرف ثوبها من لهيب النار، وتعلق لسان من ألسنة النار بطرف الثوب. وعندما أدركت الخطر الداهم، أطلقت صرخة، ووجدت الماء ينسكب من دورق زجاجي وأحست بيدين تمسكان بها وترفعانها بعيدًا عن النار. قال «مارك»:

– أيتها الحمقاء الصغيرة! ولاح امتقاع لون وجهه تحت جلده المحترق، فبدت الندبات جلية واضحة، وأردف يقول:

– هل أعماكِ «رودري برينين» حتى أصبحت لا ترين شيئًا أبدًا؟ وراحت يداه تعالجان الكدمات التي لحقت بها، وكان ثوبها المخملي قد بلله الماء، وأصبح غير صالح للارتداء. وانتابتها رجفة، فاغرورقت عيناها بالدموع، من الخوف والرعب اللذين اجتاحاها حتى أنها لم تعد ترى سوى الجانب المحترق من وجهه، والجحيم الذي ضاقت به ذرعا. قالت معارضة لا مدافعة:

– لا. وكانت صرخة أطلقتها ضد الألم الذي قتل شعور الرقة فيه، وكل اتزان في نفسه، وتركها ترحل عنه، وأدار وجهه بعيدًا عنها وقال لها:

– خير لك أن تتوجهي إلى الدور العلوي، لتستبدلي ملابسك المبتلة، وسألحق بك بعد فترة. تركته واتخذت سبيلها عبر الصالة، وارتقت الدرجات، وارتجفت بردًا عندما لمست أصابعها ثوبها المبتل الذي شوهه الحريق. فلن يكون في وسع «مارك» أن يدع الرسام يمسك فرشاته ليرسمها وهي مرتدية هذا الثوب المشوه، إنه سيجف حقًا... لكن الحروق أفسدته. وشعرت بارتياح حينما وصلت غرفتها في البرج، وخلعت الثوب. وكانت أغطية الفراش مطوية، وعليها ملابس النوم، فارتدت ثيابها على ضوء المصباح، والنار

المشتعلة في المدفأة، ثم جلست فوق مقعد مستدير وراحت تتأمل الوهج الأخير للنار. كانت هذه هي ليلة زفافها.. ولا جدوى من أن تسأل «مارك» إمهالها حتى تعتاد عليه، وعلى بيته. أجفلت عندما سمعته يدخل الغرفة المجاورة. مع مرور الثواني ازداد قلقها، وراحت تعبث بخاتم زواجها الذهبي الذي أحست به ثقيلا في إصبعها، وسمعت سقوط مفتاح على المنضدة، وصوت حفيف حرير السرير الذي نم عن جلوس «مارك» على حافته ليخلع حذاءه. لم تستطع «رافينا» أن تبارح مقعدها حينما فتح باب الغرفة المجاورة فجأة، ووجدته ماثلا أمام عينيها في روبه الحريري الأسود، وراحت تحدق إليه بعينيها الواسعتين وقد استحال وجهها إلى صفرة أشبه بصفرة ثوبها. قال لها بينما كان شعرها الأحمر ينسدل مسترخيا على كتفيها:

– يجب ألا تجلسي هكذا، فالنار ذوت تقريبًا. اقفزي إلى فراشك. لكن «رافينا» لم تستطع التحرك من مكانها، وبدت الغرفة يثقلها ظله حينما أقبل عليها، ورفعها من فوق المقعد، وحملها إلى السرير ووضعها على الفراش واقترب بوجهه منها، ورأت الغضب ما زال يتطاير من عينيه. أصبح يعرف الآن أنها كانت بصحبة «رودري» حينما اختفت من قاعة الاستقبال يوم زفافها، وإنه لن يغفر لها ما فعلته. قال لها وهو يجدل خصلات شعرها الأحمر حول عنقها:

– أيتها الساحرة الصغيرة. انتابتها رجفة لم تستطع السيطرة عليها، لأن «رودري» وحده كان دائمًا يناديها بعبارة الساحرة الصغيرة، فأغمضت عينيها حتى لا ترى وجه «مارك» المعذب في ضوء المصباح. قالت له صائحة:

– أطفئ المصباح.. أطفئ المصباح! وخيّم الصمت.. وسمعت صوت فرقعة. ولم يكن صوت إطفاء المصباح، وإنما كان صوت مزلاج الباب الذي أغلقه «مارك» بعد مغادرته غرفة النوم، إذ تركها وحدها، بينما كانت خصلة الشعر ما زالت مجدولة حول عنقها والدموع تنهمر على وجنتيها.

- 3 -

أخيرًا نامت «رافينا» بعد ليلة حالكة وسهاد طويل. وعندما استيقظت في الصباح كانت الشمس تتسلل إلى غرفة نومها تحمل معها الدفء وشذى الأعشاب ونسمة البحر. ظلت في فراش العرس تتأمل الغرفة، ووقع بصرها على المقعد المستدير قرب المدفأة، فتذكرت أنها جلست عليه في انتظار «مارك»، الذي حملها كالطفل بين ذراعيه، وربما لسلوكها الطفولي معه تركها ولم يلمسها، فنشجت بالبكاء، ونامت وحدها في غرفة الزفاف. غادرت الفراش لتجد دلوًا نحاسيًا مملوءًا بالماء الدافئ، واستمتعت بحمّام أعاد الانتعاش إليها، ثم فتحت خزانة ملابسها وأحست برغبة تحدوها على أن تتمتع بالحرية والانطلاق في خلال يومها، فاختارت بلوزة ملونة وسروالا فضفاضًا، ومشطت شعرها وأرسلته على ظهرها، ووضعت لمسة من أحمر الخدود لتخفي شحوب وجهها الذي نجم عن التوتر الذي كابدته في خلال أول ليلة أمضتها في «كازاتشيبريسو». وعندما اتخذت طريقها للخروج من الغرفة، وشرعت تهبط درجات السلم الحلزوني للبرج، شعرت بالجوع ينشب أظافره في معدتها. ولم تجد أية إشارة تنم عن وجود «مارك»، افترضت أنه يقوم بجولة تفقدية في البساتين وحقول الكروم التي تحيط «بالكازا». وبدأت «رافينا» تتساءل عما إذا كان البيت قد هجره أهله، قال لها «رينزيو» بالإيطالية وهو يحدق إلى سروالها الفضفاض:

– صباح الخير يا «بادرونسيتا». قالت له بالإنجليزية:

– أحب أن أتناول طعام الإفطار يا «رينزيو». وكانت تعلم أنه يفهم الإنجليزية لأن «مارك» أخبرها في أثناء تناول طعام العشاء بأن «رينزيو» كان يعمل في فنادق «أوروبا». قال:

– البادرون لم يعد بعد من جولته الصباحية، وعلى البادرونسيتا» أن تنتظره،

لتنضم إليه في الشرفة المطلة على البحر حيث اعتاد تناول طعام إفطاره. بدت رغبة شفافة في نظراتها وهي تسأله:

– الشرفة المطلة على البحر؟ إنني لم أرها.. هل تقودني إليها؟ وانحنى «رينزيو»، واخترقا الصالة، ثم سارا في ممر ضيق وعبرا مدخلا يؤدي إلى الشرفة التي امتلأت بأشعة الشمس والمفعمة بهواء البحر، وكانت الشرفة تبرز إلى الأمام لتطل على البحر مباشرة، ومحاطة بسياج من القضبان الحديدية تأمينًا لسلامة الواقفين. وتمتم «رينزيو» قائلاً:

– «البادرونسيتا» سوف تنتظر وصول طعام الإفطار. قالت:

– أجل. وسارت إلى نهاية الشرفة، مأخوذة بمنظر الجبال، والأمواج تتكسر فوق الصخور التي تجمعت على الشاطئ كأنها أطلال قلاع محطمة، وشاهدت النسور ترفرف فوق صفحة المياه.. أدهشها أن يحب «مارك» تناول طعام إفطاره في مثل هذا المكان. هذا الملك الذي يتمتع بمشاهدة هذه المناطق الطبيعية، وسيد هذا البيت الكبير القائم على المقعد الصخري... ها هنا ملأت المرارة فمه، فقسا قلبه بعد موت ابنه «دريستي» وخاصة أن يملك كل هذه القرى، بلا ابن يرثها. وقفت «رافينا» عند سور الشرفة، والريح تعبث بشعرها، وعلى سماتها ملامح العروس الأسيرة، وكانت تعلم أن «مارك» سوف ينضم إليها حالا، فتوترت أعصابها من مقابلته بعد الموقف الدرامي الذي شاب فراقهما ليلة أمس، وأنذرتها أعصابها بدنو وصوله قبل أن تسمع وقع خطواته فوق أرضية الشرفة. امتلأ الجو بشحنة كهربائية استطاعت أن تشعر بها وهي تسري في عمودها الفقاري الذي تجمد عندما وقف وراءها وهو يقول:

– صباح الخير. أظن أنك لم تستغرقي وقتًا طويلا حتى تعثري على وكري، أخبريني كيف ترين الآن «الكازا» والبقاع المحيطة بها بعدما أشرقت عليها شمس الصباح؟ قالت:

– أكثر وثنية مما كنت أتصور. وشعرت بضربات نبضها عندما تحولت

لمواجهته، ووجدته يتأمل الشمس وهي تسقط بأشعتها على شعرها، وكانت تتوقع أن تلاقي منه برودًا هادئًا ومقاطعة مهذبة بعد ما حدث ليلة أمس، ولكنه ابتسم ورفع حاجبًا متعجبًا للملاحظة التي أبدتها، وسأل:

– هل ترينه وكر قاطع طريق يحتفظ بك رهينة انتظارا لفدية يدفعها أهلك لإنقاذك؟ وتناول يدها التي تتحلى أصابعها بخواتيمه، وأحنى رأسه الأسود ومست شفتاه يدها، فاشتمت رائحة ثمار الليمون عالقة بثيابه. كان يقوم بجولة في حقول الليمون التي نضجت وغدت معدّة للعصر وتعبئة عصيرها في مصانع الموالح التي تقع على مبعدة من الجزيرة، ذلك أن «دي كورزيو» ماركة مميزة على جميع المشروبات المماثلة. وتتمثل الماركة بصورة نمر جاثم فوق صخرة يلعق الماء من نهر متدفق. سألها وفي صوته نبرة سخرية:

– هل استمتعتِ بنوم عميق؟ لم تستطع أن تتطلع إلى نظراته وهي تجيب عن سؤاله بأنها نامت نومًا عميقًا. قال:

– حسنًا.. وتحول عنها عندما ظهر «رينزيو» في الشرفة وهو يحمل صينية عليها ألوان من الطعام، ويتبعه خادم صغير السن يحمل دورق القهوة. وراح الخادم الصغير ينظر إلى شعر «رافينا» الأحمر، لأنه اعتاد أن يرى فتيات «كاستل ديل توري» بشعر حالك السواد، واضطر «رينزيو» إلى أن يزجره فانصرف خائفًا، وشعرت بأن الخادم المذعور بعث في أعماقها بمزيد من الغربة عن ذي قبل. وقام «رينزيو» بإعداد مقعد أمام المائدة جلست عليه «رافينا» فقال له «مارك»:

– يمكننا أن ندبر أمر إفطارنا بأنفسنا. قالت له:

– يبدو سلوكك غريبًا معهم. وراحت تراقبه وهو يصب لها القهوة، ويقدم إليها طبقًا من حلوى «التروفيل» وشريحة من الخبز المقدد واستطردت تقول:

– إنهم غرباء بالنسبة إليّ. إنك لا تتصور ماهية شعوري يا «مارك». نصف حالمة لا أكاد أتصور أن هذا المكان واقع حقيقي، وأن زواجنا تم فعلا. قال

لها:

– تناولي طعامك يا «رافينا». إن «التروفيل» مثل الحب يفقد شيئًا من نكهته عندما يصبح باردًا. وكانت «رافينا» تشعر دائما بقبضة تعتصر قلبها إذا ما بدأ يتحدث عن الحب. ماذا يقصد بالحب؟ أن يمسك بها بين ذراعيه، يمتلكها دون أن يشعر بأية حرارة مما كان يشعر به نحو «دوناتا»... فتاة الجنوب التي فقدها كما فقد «دريستي». كسرت «رافينا» الخبز، ودهنته بالزبدة، ووجدت «التروفيل» حلو المذاق واللحم لذيذًا، وحاولت ألا تفكر في طعام الإفطار الذي اعتادت أن تتناوله في صحبة «جاردي»، وقريبًا من جبال «ويلز» المعروفة، ومن وراء نوافذ «رافنهول». سألته:

– هل تتناول جدتك طعام الإفطار في غرفتها؟

– أجل... «لانونا» بدأت تشعر بسنها المتقدمة، وغالبًا ما تمضي الليل تكابد الأرق فينتابها الإعياء عند الصباح، وقد اعتادت وصيفتها «بابتستا» أن تقرأ لها إذا جافاها النوم. ستجدين القوة في شخصية السرديّ (نسبة إلى جزيرة «سردينيا») فلا يلتبس عليك الأمر فتظنين أنهم يفتقدون الحنان. وحينما تعتاد «لانونا» عليك وتتقبل حقيقة كونك زوجتي، ستكتشفين أنها أقل تهكمًا عما حدث حينما التقيت بها يوم مجيئك. لم تستطع «رافينا» أن تمنع نفسها من سؤاله:

– هل هناك علاقة بين كون المرء سرديًا، وبين كلمة «ساردونيك»؟

– هل تظنين أنني شخص متهكم مرير؟ قالت:

– بالتأكيد إن زواجنا أكبر دليل على مرارتك.

– إذن أنا شخص مرير.. وأنت تشعرين بأنك ضحية لمرارتي!

– أعرف أنه شيء فظيع بالنسبة إليك أن تجتاز هذا الشعور، ولكنه دفعك إلى أن تكون قاسيًا! وإنه لقسوة منك يا «مارك» أن تتوقع أن يكون سلوكي ينم عن رغبة في أنني أريد أن أكون هنا، وما المسألة إلا مجرد وقت أعد فيه

www.rewity.com

نفسي كزوجة للتكيف على حب زوجها. قال:

– لا أطلب أن تمنحيني حبك. فسألته:

– لكنني أسأل عن نفسي أنا.. وماذا أريد.

– إذا كنت تريدين «رودري برينين»، فأظن أنه خير لك أن تبقي معي. وكانت كلماته باترة كحد السكين التي كان يستخدمها في قطع شريحة بطيخ مفعمة بالعصير. سألها:

– هل تحبين أن تتناولي شريحة منها؟ إن بطيخ الجزيرة حلو المذاق. هزت رأسها وقد تشبثت أصابعها بحافة المائدة عندما رأته يضيف السكر إلى شريحة البطيخ، وراح يلتهم الشريحة بهدوء يبعث على الجنون، ورأت اهتمامه بها كامرأة لا يزيد على اهتمامه بشريحة البطيخ. سألته:

– هل تأذن لي بالانصراف؟ وأمسكت بمنشفتها وألقتها إلى جانب طبقها، وشعرت بنظراته مسلطة عليها عندما تركت المائدة، وتوجهت نحو جدار الشرفة، ووقفت تحدّق إلى الجبال التي لمستها أشعة الشمس الذهبية. ولقي الجمال الوثني للمنظر صدى لشعورها بالشقاء، ورأت أن هذا المكان يجب ألا يكون مضيئًا، وإنما يجب أن يكتنفه الظلام الدامس حتى يتلاءم مع حالة اليأس التي تكابدها. سألها «مارك»:

– هل تذكرك جبالنا بـ«ويلز»؟

– لا شيء هنا يذكرني بوطني.

– أنت تحملين في نبرة صوتك برودة «ويلز»! قالت:

– وفي قلبي أيضًا... يا «مارك». واستدارت لتتخذ وضع المدافع، ثم أردفت تقول:

– ألا يكفي أنك حصلت عليّ، لا تطلب أن أحب سجنك.

– يبدو لي كأنك تزمعين الثورة ضد الجزيرة.. وضدي أنا. نهض واقفًا، وسار نحوها مثل النمر المتحفز للوثوب، وحينما دنا منها رأت بوضوح الندوب

محفورة على يديه فتذرعت بالصبر لكي تتحمل لمساته حينما أدار ذقنها، وأجبرها على أن تنظر إلى عينيه قائلاً:

– هل تظنين أنني تزوجتك لمجرد شعوري بالمرارة فقط؟ هناك شيء أكثر من هذا يا «رافينا». قالت:

– الرغبة. وشاب كلمتها.. إحساس بالكراهية له. قال وعلى شفتيه ابتسامة متهكمة:

– أجل.. بعض من هذا، بالإضافة إلى أنني اكتشفت أنك مثيرة، مزيج من البراءة والخداع. أنت وحدك يا «رافينا» لديك القدرة على أن تجعلي أعصابي تفلت مني أو أسيطر عليها بسرعة. لديك روح عالية وأنا لا أحب تحطيم أي روح عالية.

– ولهذا السبب لا تجعل في يدك سوطًا، لأنك في غنى عنه؟

– الشخص الضعيف فقط يحتاج إلى أن يمسك سوطًا ليروض امرأة أو حصانا.

– إذن أنت تنوي ترويضي؟ هز رأسه، وراح يدفع خصلة من شعره إلى الوراء بعيدًا عن حاجبيه ثم قال:

– لا.. عندما نمتطي معًا جوادينا، ربما ستعثرين على جواب لسؤالك، وعندما نكون سويًا على صفحة الماء، وفي خضم العاصفة ستعرفينني أكثر. لست أحب الأشياء التي تروض. إنني سردي! أحب بربرية شمسنا في أوج الصيف وقوة الريح عندما تهب من الجبال، ولسعات أشجار السرو، ولطمات أمواج البحر، وسقوط حبات الزيتون تحت أشجارها. أنا سردي يا عزيزتي! إننا لا نقبل أية تسوية للأمور مذلة، ولا نقبل ترويضًا لإخضاع المرأة. وعندما نظرت إليه عرفت السبب الذي دفعه إلى أن يتركها ليلة أمس، فإن الخوف الذي تملكها ليلة أمس لم يجذبها إليه، فالرجل يحب من المرأة أن تتحول دموعها إلى ابتسامة، وتشعره بأنها تحتاج إليه. فقالت فجأة:

www.rewity.com

– دعني أرحل يا «مارك». وتطلع إليها بابتسامة لوت شفتيه، وأبعد يديه عن يديها، واستند إلى سور الشرفة الذي يحول دون سقوط المرء إلى أعماق البحر. واستطردت تقول:

– دعني أرحل إلى وطني، أعني حررني من هذا الزواج.

– هنا وطنك.

– يمكننا.. يمكننا أن نفسخ هذا الزواج.. يا «مارك»... وتحول ببصره ليحدّق إلى أمواج البحر الثائرة، وبدا جانب وجهه المشوه مثل الحفر على وجه عملة برنزية، وقال:

– تطلبين شيئًا لا أستطيع أن أمنحك إياه. اطلبي ملابس.. حلي.. حديقة تزرعينها بالورد.. حصانا لنفسك وفتيات يسعدهن التعرف إليك. لا أبخل بأي شيء. لكن في حدود المعقول.

– هل يعتبر فسخ الزواج شيئًا بعيدًا عن المعقول..؟ إننا لم.. قال مقاطعًا حديثها:

– سيحدث يا «رافينا»، فقط إنني لم أستعد شيئًا مما قلته لك يوم أن أتيت إلى «رافنهول»، وأخبرتك بـ«دريستي». سأمنحك كل شيء يمكن لرجل أن يقدمه لفتاة. فقط امنحيني طفلا منك أنت يا «رافينا» بكبريائك وعينيك الجميلتين وولائك لأسرة «برينين». الولاء! الولاء! كانت الأمواج تردد الكلمة في عقل «رافينا»، وطيور البحر تصرخ عاليًا، وكان «مارك» وحده يرددها وهي تشعر أمامها بعجز يشل سكناتها. قالت:

– الطفل يولد من الحب.. كما ولد «دريستي». نظر إليها بخشونة فبدت ندوبه أكثر غورًا عن ذي قبل وقال:

– لن نتحدث عن «دريستي»، ولكني أريد أن أريك بعضًا من ضيعتي. الشمس حارة، ومن الأفضل أن أعثر لك على قبعة. وعثر «مارك» على قبعة قش في كهفه وهو غرفة فيها كل أسباب الاسترخاء، والهدوء. ثبتت «رافينا» القبعة

فوق رأسها دون الاستعانة بمرآة وسوت شعرها تحتها، وجعلت حافتها لتظلل عينيها.

– أنت لست مغرورة بمظهرك.

– الغرور كالدراق (الخوخ) سهل الخدش، وعلى أي حال لست فاتنة. قال «مارك»:

– أنا سعيد بذلك. إن أي رجل يعيش في أعماقه شيطان الغيرة لا يستطيع أن يحتمل مغازلة أحد لزوجته. تعالي. دعيني أريك حدائق الليمون. وفتح بابًا يفضي إلى الحدائق التي امتلأت بأشجار الليمون حيث راح عدد كبير من الرجال يتفحصون الثمار، وتمهل «مارك» ليتحدث معهم وليقدم إليهم عروسه، وأدركت «رافينا» أنه يبغي بذلك أن يوطد أواصر زواجه، فأصبحت في نظرهم امرأة «البادرون» وأي تفكير في فسخ الزواج يقلل من قدر سيدهم ومكانته عندهم. وتذكرت أنه قال لها في استعلاء وكبرياء: «أنا سردي». وبدأت «رافينا» تدرك تمامًا أن الكبرياء والكرامة تعنيان «سردينيا» حيث تنمو أشجار الزيتون بين صخورها. والشمس تغرق التراب بأشعتها، وقوة الأرض تكسو وجوه ناسها، ورائحة الأعشاب وأشجار السرو تملأ التلال التي انتشرت فوقها حدائق الزيتون. كانت القرية تقع على قمة التل، وأبواب المنازل والنوافذ ضيقة، وسطوحها تميل إلى انحدار واحد، والحوانيت أشبه بالكهوف تنبعث منها رائحة أكياس الحبوب والأعشاب، وقامت «رافينا» بجولة في القرية فشاهدت الكنيسة العتيقة ورأت النافورة التي تتوسط الميدان، وكانت النساء قد اعتدن تعبئة جرارهن منها، لتمديد أنابيب الماء من الجبال إلى البيوت. وأدركت «رافينا» أن «مارك» بذل جهده لتوصيل الماء إلى بيوت القرية، ولمحت بعض النسوة جالسات أمام الأبواب يعملن في مغازل صغيرة، كل واحدة منهن تنحني برأسها لـ«البادرون»، بينما تحدّق إلى قوام «رافينا» النحيل وسروالها الفضفاض. ورؤية هؤلاء النسوة ذكرتها بـ«دونا جوكاستا»

التي كانت تأمل أن يتخذ «مارك» عروسًا من بنات جنسه. ولم تستطع «رافينا» أن تقاوم رغبتها في أن تتطلع إلى داخل البيوت فرأت الدجاج يمرح في الأفنية، والأثاث العاري من كل زينة، وأكوام البصل والسجق معلقة في السقوف.. الصمت مخيّم، لأن الأطفال كانوا يتلقون العلم في مدرسة القرية. وعندما مرا ببابها قال «مارك»:

– المعلم السيد «لاندولفو» يتناول أحيانًا طعام الغداء في «الكازا». وفي هذه اللحظة خرجت طفلة من المدرسة تبحث عن شيء فقدته على الأرض. وفجأة انحنى «مارك» ليلتقط منديلاً سقط بالقرب من الباب، وتحدث معها وهو يقدمه إليها، ولكنها ولت هاربة حين رأت وجهه المشوه ورأته «رافينا» يسحق المنديل في قبضة يده، ثم وضعه على قمة عمود الباب وواصلا سيرهما. قالت «رافينا» بسرعة:

– لا تأبه يا «مارك». ولأول مرّة أدركت مدى الجرح الذي أصابه عندما فزعت الطفلة من رؤية الندبة الغائرة في وجهه، وولت منه هاربة. ولمست ذراعه ولكنه سحبها بعيدًا عنها ليس غضبًا، وإنما كنوع من الشعور بالاستقلال. قال:

– ليست هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها النظرة الخاصة في العيون. تعالي، إن هذه الدرجات الضيقة ستقودنا إلى الممر المؤدي إلى «الكازا». اشتدت حرارة الشمس، ولمحت «رافينا» منظر البحر وودت لو تسأل «مارك» أن يتوجها إلى الشاطئ، فيرطبا أقدامهما في مياه البحر. لكن صمته بعث القشعريرة في أوصالها. وشعرت بالسعادة عندما بلغت أخيرًا جدار فناء «الكازا» وأخبرها بأن هناك بعض الأوراق تنتظره في مكتبه ويريد إنجازها. ألقى نظرة إلى ساعة يده وقال:

– يمكنك تسلية نفسك بأي شيء، أو ربما تحبين التحدث إلى جدّتي فهي في هذه الساعة تتناول قهوتها في صالونها، وأظن أنك تشعرين بالجفاف في

حلقك بعد رياضة المشي تحت أشعة الشمس. وأدركت «رافينا» أنها لابد من أن تعقد صداقتها مع «لانونا» إن آجلا أم عاجلا، فوافقت على اقتراحه بتناول فنجان من القهوة معها. وقالت له وهو يسير نحو المكتبة:

– هل تنوي احتساء قهوتك.. وحدك؟ فالتفت نحوها، وهو يضع يده فوق مقبض باب مكتبته، ثم قال لها:

– إن ما لا أبتغيه منك هو الشفقة. وفتح الباب ودلف إلى المكتبة وحده.. نزعت «رافينا» قبعتها، وسوت شعرها، ودخلت الصالون وكانت «دونا جوكاستا» جالسة تحتسي قهوتها، وتدخن سيجارًا رفيعًا، ولم تستطع «رافينا» أن تمنع نفسها من التطلع إلى السيجار وهي تقول:

– هل أستطيع الانضمام إليك؟ ألقت «لانونا» رماد السيجار، وهي تقول:

– يوجد فنجان إضافي لـ«ماركوس»، أين هو الآن؟

– لديه أعمال يريد إنجازها في المكتبة.

– كنت أظن أنك شغلته لتستمتعي برؤية القرية. تعالي واسكبي قهوتك، لا تقفي هكذا، نصف جسمك داخل الغرفة ونصفه الآخر خارجها. أجابت «رافينا» بلهجة من يدافع عن نفسه:

– أرادني «مارك» أن أزور القلعة. وسحبت العجوز نفسًا من سيجارها بشكل ساخر وقالت:

– ألم يقل لك أيضًا أن تحاولي مصادقتي؟ ثم أضافت:

– أنت تحتاجين إلى ما هو أكثر من عينين خضراوين لذلك. وتحرك اندهاش عميق في داخل «رافينا» حينما تبين لها أنها و«مارك» على علاقة وطيدة وأنها لا تعلم كم هي جزء من مأساة مقتل «دريستي» وتشوه حفيدها. ارتجفت يد «رافينا» قليلاً وهي تسكب القهوة، وسُرت حين جلست في الكرسي المريح لأن الأعصاب خانت قدميها. لم تكن «دونا جوكاستا» تقبلها، لأنها ليست من الجزيرة، فكم سيكون كرهها لها أعمق لو عرفت سبب اختيارها عروسًا

لـ «مارك». سألتها العجوز:

– هل أعجبك شيء في بلدنا؟ قالت «رافينا» وهي ترتشف القهوة:

– أنا اعتدت أن أكون بنت قرية، ولذا استمتعت بالتجول في القرية ووجدتها مثيرة للغاية. قالت الجدة بتحامل:

– أنت تتحدثين وكأنك تقومين بزيارة سريعة لها. يجب أن تعتبري «كاستل ديل توري» من الآن فصاعدا بيتك. هنا ستعيشين حيث تسلط الشمس أشعتها على جدران «الكازا» والرياح الشرقية الحارة تهب ساخنة وجافة وتدفع الأعصاب إلى التوتر. وعندما يأتي الشتاء تهطل الأمطار، فتتعرض الطرقات للمخاطر ولكنها لا تحول دون سفر «مارك» وحده. فهو قد اعتاد على ألا يصحب زوجته معه في مثل هذه الأحوال الجوية. حتى لا تصبح «الكازا تشيبريسو» تعاني الوحدة عندما يرحل في رحلات عمل.

قالت «رافينا» بيأس:

– أنا.. أنا سوف أرحل معه. عندما يسافر إلى «بريطانيا» سوف يأخذني معه. إن أهلي يعيشون هناك.

– أهل «سردينيا» يؤمنون بأن مكان المرأة بيتها.

– «مارك» لن يتوقع مني أن أخضع لهذه القاعدة. وسحبت «دونا جوكاستا» نفسًا عميقًا من سيجارتها وقالت:

– وماذا تعرفين أنت عن «مارك» بعد بضعة أيام من زواجك به؟ أنا تعهدته بنفسي منذ وفاة أمه عند ولادته، ورأيته يشب حتى أصبح رجلا. هذا الرجل الذي لا تعرفينه.. الرجل الذي كان قبل الحادث تتهافت عليه كل فتيات القرية. وكان في وسعه أن يختار أجملهن.. ذات العطر الفواح.. والمزاج الحلو. وتطلعت «البادرونا» العجوز مليًا إلى وجه «رافينا»، ثم أشارت إلى خزانة خشبية تستند إلى الحائط، وقالت لها:

– اذهبي وافتحي الدرج الثاني وستجدين في داخله إطار صور من الجلد،

أحضريه لي. وامتثلت «رافينا» لطلبها، فتوجهت إلى الخزانة، وفتحت الدرج الثاني وشاهدت إطارا جلديًا من النوع الذي يضم صورتين فأحضرته لـ«دونا جوكاستا» التي قالت:

– افتحيه، وشاهدي الصور. وأطاعت «رافينا» بينما قلبها يخفق خفقات سريعة، وكما توقعت كان الإطار يضم صورتين إحداهما صورة لعروسين، والأخرى صورة شخصية لـ«مارك» فتطلعت إليها ورأت وجه شاب نحيل شديد الجاذبية، عيناه السوداوان تضحكان ويملأهما الفرح والرغبة في الحياة، وفمه جسور، ينعطف حادًا مما يتوافق مع حاجبه الأيسر. كانت هذه هي ملامح صورته منذ ستة أعوام، أما الصورة الأخرى لـ«مارك» فلم تكن معروفة لها، وهي صورة زواجه بفتاة مشرقة ترتدي طرحة وسألتها «دونا جوكاستا»:

– هل تعرفين أن زوجة حفيدي الأولى كانت بهذه الصورة الجميلة ولها لوحة زيتية في برج «المادونا»، تصوري روعة جمالها حينما كانت هي و«مارك» في أوج سعادتهما. يجب أن تذهبي لمشاهدتها. «دوناتا» كانت حقًا هدية من السماء لرجل مثل حفيدي. وعندما استعادتها السماء أخذت معها معظم قلبه. وعندما مات طفلها أدرك «مارك» أنه لن يحب مرّة أخرى، على الرغم من أنه كان من المحتّم عليه أن يعيش مرّة ثانية. وأطفأت «دونا جوكاستا» سيجارها في مطفأة نحاسية، وكانت طريقة إطفاء السيجار لها دلالتها الواضحة، وكأنها تريد أن تؤكد لها بأن الحب لن يستطيع أن يندلع مرة أخرى في قلب «مارك». قالت الجدة:

– من فضلك أرجعي إطار الصور إلى الدرج ثانية. إنها ذكرى مؤلمة لـ«مارك»، ولذلك أحتفظ به سرًا. وأطاعتها «رافينا» طاعة عمياء، لكن الوجوه التي رأتها في الصور راحت تجول في أعماق عقلها، ويطاردها شبح سعادتهما، وعندما عادت وواجهت «لانونا» قالت لها:

www.rewity.com

– أرجو أن نكون أصدقاء. أما إذا أصررت على معاملتي كإنسان غريب..

قاطعتها الجدة قائلة بوضوح:

– أنت فعلا غريبة. دخلت المنزل ليلة الأمس وكأنك أتيت ضد رغبتك، هل كنت تأملين أن يعيش حفيدي معك في «بريطانيا»؟ وأطلقت الجدة ضحكة ازدراء ثم واصلت حديثها:

– أنت تزوجت بـ«سردي»، وجذوره ضاربة في هذه الأرض. وأرضه هي حياته. وتزوج ثانية مثلما يفعل عندما يزرع أرضه من جديد بعد موسم الحصاد. إنه يريد ابنًا له. وأشاحت «رافينا» بوجهها عندما أحست بالعداوة في عيني الجدة التي راحت تتفحص قوامها النحيل. وقالت لها:

– «مارك» أحمق. إن أية فتاة في الجزيرة تستطيع أن تمنحه نصف دستة أطفال. إذ يبدو من تصرفاتك كأنك لم ترغبي يومًا في أن يلمسك رجل. وكانت ملاحظة شديدة أبدتها «دونا جوكاستا» التي رأت جانبًا من الحياة فأصبح في وسعها أن تتبين بوضوح نظرة العروس المدلهة بالحب. وقد رأت من «رافينا» موقف المدافعة متخذة مظهر الإنسانة الأسيرة، وكأن أفكارها وأشواقها تعيش على مبعدة كيلومترات. سألتها «لانونا»:

– هل أنت شقية؟ بدأت «رافينا» تسير نحو الباب وهي تقول:

– كيف أكون سعيدة وأنت تقولين لي إنني أفتقد المزايا التي يجب أن تتوفر في الزوجة: لست محبوبة. ولا يرحب أحد بوجودي. ومع ذلك لا أستطيع أن أعد حقيبتي وأرحل في حرية من هذا البيت. وجذبت الباب تفتحه. وأسرعت تهرب من صالونها. وانزوت في كهف «مارك» راغبة ألا يعثر عليها أحد. كان موعد تناول طعام الغداء قد حان. وعثر عليها «ريتزيو». لكنها تمسكت بالصمت وهي تتناول الطعام مع «مارك» وجدته. وعندما غادرتهما «دونا جوكاستا» لتستمتع بالقيلولة. علمت «رافينا» من زوجها بأن حفل الزفاف قد أعده أهل الضيعة، وسيقام هذه الليلة. وأشعل «مارك» سيجارًا

واستلقى على المقعد. ثم قال:

– هذا الحفل دائمًا يقام عندما يتخذ البادرون لنفسه زوجة. سوف تستمتعين به، وسيرقص الشباب رقصة «إيطاليا» الشعبية.. «الترنتيلة»، وسترتدي الفتيات ثيابهن القومية. وستنتخب فتاة منهن لتقدم إليك هدية. وعضت «رافينا» شفتها. ورأت بعيني خيالها وجه «دوناتا» المشرق فقالت:

– لكن يا «مارك». هذا معناه أنه لم يسبق لك الزواج من قبل. لاحت مظاهر القوة في عينه. وعلى فكه وهو يقول:

– سيقام الحفل وعشيرتي في انتظاري. إنهم يعملون بجد واهتمام وعند حدوث مناسبة سعيدة يمرحون بحماس شديد، وأنت يا سيدة «دي كورزيو» ستشعرين بالسعادة وأنت مرتدية أجمل أثوابك. قالت له:

– هل نسيت أنك ألقيت الماء البارد ليلة الأمس على أجمل ثيابي؟ قال:

– أجل.. حتى أنقذك من الاحتراق، وأنا أعرف كيف يشعر المرء عندما يلسعه نار الحريق. قالت:

– «مارك»، إنني آسفة لأنني أبدو بلهاء في موقفي تجاه الحفل. لم أتوقع إقامته.. و..

– والحديث الذي تبادلته مع «لانونا» ترك في نفسك شعورًا بالاكتئاب. ومال بجسمه إلى الأمام، وتطلع مليًا إلى وجهها، وكانت «رافينا» تجلس على وسادة. وذراعاها حول ركبتيها. فبدت صغيرة السن، ووقورة. وأردف يسألها:

– ماذا قالت لك جدتي؟ هيا خبريني.

– هي.. حسنًا.. قالت إنك سوف تتركني في «الكازا» عندما تقوم برحلات عمل. لي الحق يا «مارك»... فقاطعها قائلا:

– في أن تكوني بصحبتي.. أليس كذلك؟

– أن أرى «جاردي» عندما تذهب إلى «بريطانيا». قال «مارك» وهو يعود

www.rewity.com

بظهره إلى الوراء ويرفع يده ليدخن سيجارًا:

– مفهوم، ولكنني لن أذهب إلى «بريطانيا» إلا بعد فترة طويلة. رحلتي المقبلة ستكون إلى «روما». قالت:

– «مارك».. هل تدعني أذهب معك؟ ولم تكن «رافينا» تتصور أنها سوف تبقى في هذا المنزل الغريب المسكون بتلك الفتاة التي تضع طرحة فوق شعرها الأسود، وصورتها المعلقة في برج «المادونا» والتي رحب بها الجميع، وأردفت «رافينا» قائلة:

– اعتدت أن أتجول بطريقتي الخاصة، ولن أكون مصدر إزعاج، وسأبتعد عن طريقك عندما تلتقي بالناس لتجري معهم محادثات العمل. ولاح لها أن وقتًا طويلاً انقضى قبل أن يقول لها متهكمًا:

– طبعًا سأصحبك معي، لأنني إذا تركتك هنا وحدك ربما تفكرين في الهروب ثانية. وتصاعد دخان سيجاره فاختلط بأشعة الشمس التي كانت تتدفق عبر النوافذ النصف المفتوحة، وكان لون عينيه السوداوين عميقًا، وكان جانب وجهه غارقًا في الظل، فلم تجد الأمر هينًا لأن تشكره على وعده بصحبتها معه في رحلته إلى «روما». إنه يريدها معه لتظل تحت بصره، ولم تعد تثق بعدم ثورته إذا ما فكرت في الهروب مرّة ثانية. سألته سريعًا:

– هل زرت «روما»؟ قال:

– أجل. ونزع بتفكيره إلى الماضي، وكأنما كان يتطلع إلى الأماكن التي رآها ويحمل لها أجمل الذكريات، ثم عاد إلى الحاضر ليستطرد قائلاً:

– قضيت شهر العسل هناك!

- 4 -

زادت ظلمة الليل باختفاء القمر، وازدادت النجوم تألقًا وبهاء، وامتلأ المكان بشذى الزهور و«رافينا» واقفة وحيدة في الشرفة المطلة على البحر تستجمع شجاعتها لتبدو مرحة في الحفل، فبعد قليل تتدفق جحافل الناس إلى فناء الدار، وتضاء المصابيح وتبدأ جوقة الموسيقى في العزف. ارتدت «رافينا» ثوبًا رائعًا، لم تجرؤ على السؤال عن صاحبته وإنما وجدته على فراشها في غرفة برج الفارس، وزاد الثوب من تألق سحر عينيها، وأبرز فتنة وجهها، وانتظرت في عصبية اللحظة التي يراها فيها «مارك»، وسمعت وقع خطواته الهادئة تعبر أرضية الشرفة حتى وقف بجوارها، وأمسك برسغها وأدارها نحوه لينظر إليها، ولم تتفوه بكلمة عندما راحت عيناه تتأملان مظهرها في ثوب الجزيرة. قال:

– كم أنت فاتنة، لكن أرجوك أن تبتسمي. الثوب يخص جدتي وقد طرأت لي فكرة أنه يناسبك. وبدت الدهشة في نظرات «رافينا» وقالت:

– هل تقصد أن «لانونا» سمحت لي بارتدائه؟ تلألأت أسنانه وسط وجهه البرنزي وقال:

– ليست «لانونا»... وإنما أقصد جدتي السلتية «ديلمزا» التي كانت تتحلى بصليب وهي ترتدي هذا الثوب. حكت أصابعه عنقها وهو يثبت حوله السلسلة الذهبية التي تحمل الصليب المرصع باللآلئ. واستقر الصليب على صدرها، ولمسته «رافينا»، فأحست بالدفء الذي بقي فيه من يد «مارك». تمتمت قائلة:

– كم هو جميل صليب «ديلمزا». شكرًا لك يا «مارك» لأنك سمحت لي بارتدائه هذه الليلة.

– أنا أعطيته لك.

– لكن... وضع «مارك» إصبعه فوق شفتيها ليمنعها من مواصلة الحديث، وقال:

– لم يرتده أحد سوى «ديلمزا»، وقد قدمه إليها جدي عندما جاءت إلى هنا.

وشعرت «رافينا» فجأة بالدموع تحرق مآقيها، فقالت:

– «مارك».. أحيانًا تبدو رحيمًا للغاية. وعرفت يداه طريقهما إلى وسطها، وقال لها:

– ولكني في أغلب الأحيان أبدو قاسيًا. أليس كذلك؟ كم أحب أن تقبليني يا «رافينا». وقفت «رافينا» على أطراف أصابع قدميها وكانت تنتعل خُفَّيْ «ديلمزا» الأسودين، وقد زينا بشرائط وردية، ثم مست شفتاها خد «مارك» غير المشود، وفجأة شعرت به يتوتر فقد أدرك أنها لا تستطيع أن تحتمل لمس ندوبه، لأن التفكير في لمسها كان يثير الرعب في قلبها. وأحكم قبضة يديه حول وسطها، فمالت برأسها إلى الوراء، وزادت عيناها الخضراوان اتساعًا، عندما مال بوجهه نحو وجهها وقال لها:

– كان يجب أن يكون الحفل تنكريًا، ما رأيك لو أنني غطيت وجهي؟

انطلقت من بين شفتيها صرخة قائلة:

– «مارك»... لكن قاطعها قائلاً:

– وجهي يفزعك.. كما أفزع تلك الطفلة التي خرجت من المدرسة.

– كفى..

– أفزعك.. ولكنك ستتعلمين كيف تعيشين معه مثلي. وانسحب، وقد ثبت ربطة عنقه، وارتدى سترة سوداء، وقميصًا أبيض اللون، ثم قال:

– تعالي.. من الأفضل أن نهبط لمقابلة الناس الذين وصلوا، فالحفل أوشك على الابتداء. وكان الفناء حاشدًا بالناس رجالاً ونساءً، يرتدون أفخر ثيابهم، يحدوهم المرح والضحك، وبدا حب الاستطلاع في عيونهم عندما ظهر «مارك» في الفناء بصحبة عروسه الشابة فصاحوا:

– مرحبًا بك في منزلك يا بادرون، جئنا للاحتفال بالزواج السعيد. وأقبل عدد كبير منهم لتحية «رافينا»، البعض يضغط على يدها، والبعض الآخر يقبلها، وأحست أن ابتسامتها تجمدت على شفتيها إزاء الطريقة المتكلفة التي تنظر بها النسوة إليها، وأدركت أنهن يقمن بمقارنتها بالعروس التي سبقتها، ووقفت إلى جوار «مارك». كانت «دوناتا» واحدة منهن مشرقة ذات وشاح يكسو شعرها الأسود مثل لون بشرة «مارك»، أما هي فشعرها أحمر اللون، وبشرتها شاحبة. شعرت «رافينا» بالتوتر وودت أن تبكي. وأحست بالمهانة من الصورة التي تعرض بها على الجميع، لكن سرعان ما زايلتها هذه المحنة عندما أقبل الخدم يحملون اللحم الذي تنبعث منه رائحة الشواء، والخبز، وأطباق المعكرونة، والزيتون، والجبن، والبندورة (الطماطم)، والفواكه، وقناني الشراب الأحمر والأبيض، وملئت الكؤوس وشرب الجميع نخب البادرون وعروسه، وهم يرددون قائلين:

– مبارك عليكما.. فلتباركما السيدة العذراء. وأُجبرت «رافينا» على أن تجلس بجوار «دونا جوكاستا»، وعدد من صديقاتها وانهلن عليها بالأسئلة العديدة، وكانت «لانونا» تقوم بترجمة فحواها لـ«رافينا» التي أجابت عنها أفضل إجابة، وكم كانت سعادتها عندما بدأت رقصة «الترنتيلة». لم تشاهد «رافينا» الرقصة من قبل، وشعرت بعد لحظة بسحرها وخاصة بعدما بدأ الرجال يتسللون إلى داخل الحلقة التي عقدها بعضهم، وإيقاع الموسيقى تسارع، وبدأت الفتيات في نداء أسماء الشبان الذين يعجبن بهم. وكانت فتاة فاتنة تقف بالقرب من «رافينا» عندما التقطت زهرة من شعرها، وألقت بها إلى راقص خبير في الرقصة. فأمسك بالزهرة ووضعها بين أسنانه البيضاء، وترددت ضحكات لم يسبق لـ«رافينا» أن سمعتها، كانت ضحكات أناس يشتغلون بجد واهتمام، ويلعبون بحماسة شديدة وتجري في عروقهم حرارة الشمس الساخنة، والريح العاتية، وجمال الجزيرة المتوحش. وعندما انتهت

www.rewity.com

الرقصة بدأ الراقصون يرطبون حلوقهم باحتساء الشراب بينما كان عازف جيتار يشدو بأغنية عاطفية، وكانت «رافينا» تراقب كل ما يجري فرأت «مارك» يتحدث إلى بعض رجاله... ربما كانوا هم هؤلاء الذين سارعوا إلى إطفاء ألسنة الحريق التي كانت امتدت إليه. كانت «رافينا» تحاول أن تتوارى في الظلال، بينما كان «مارك» يدور بنظراته بحثًا عنها، وكشف المصباح عن الصرامة التي ارتسمت على ملامح وجهه. قال له أحد الرجال بصوت عالٍ:

– يا بادرون، يجب أن نذهب لصيد السمك عندما يحين الوقت. آه.. يجب أن نصطاد بالرمح حوتا رهيبًا. قال رجل آخر ضاحكًا:

– الرجل صياد وعليه أن يجد فريسته. لطم الرجل الأول ظهر الرجل الآخر وقال:

– أنت تتكلم عن النساء، وتقارن بين صيدهن وصيد السمك. إن صيد النساء أفضل رياضة للرجال، لأنه في الحقيقة ليس من السهل ترويضهن. ما قولك يا «بادرون» في أن المرأة الأليفة أشبه بالمعكرونة الخالية من الصلصة. أجابه «مارك» وهو يبحث بعينيه عن «رافينا»:

–المرأة التي لا تتشاجر معها ثمنها يقل. إنها تحتل قلب الحياة.. وحيثما توجد الحياة فلا بد من نشوب المعركة. ضحك الرجال وراحت عيونهم تتفحص النساء في ثيابهن الملونة، وكانت هالة من الكبرياء والصراحة تحيط بهن، دون أدنى لمحة من خضوع في سلوكهن. وتقدمت فتاة فأزاحت الوشاح الذي يغطي رأس «رافينا»، ومررت أصابعها فوق وجنتها وهي تتمتم قائلة:

– سيدتي العاشقة. وكشف صوت الفتاة المرتعش عن المكان الذي اختبأت فيه «رافينا»، فاضطرت هذه أن تتسلل من مخبئها، وتقف في دائرة ضوء المصباح، وفي الحال رآها «مارك»، وعندما اقترب منها أحست أنفاسه تلفح عنقها. وكان طويلاً، أسمر اللون، يحدّق إليها بنظرة تنبئ الجميع بأنها ملك

له. سألها بصوت ساخر:

– هل استمتعتِ بالحفل؟ كما ترين، الرجال يرقصون مع زوجاتهم، وسيبدو الأمر غريبًا لو أننا لم ننضم إليهم في رقصهم. وجذبها إلى حلبة الرقص، وكانت الرقصة لا تعدو أن تكون خطوتين بسيطتين لكن «رافينا» كانت تتعثر في رقصها، وفجأة أطبقت أصابع «مارك» على وسطها، وهمس في أذنها بقسوة:

– هل تكرهين لمسة يدي كثيرًا؟ وضغطت وجنته على وشاحها الذي يغطي شعرها، وبدت همسته أمام الجميع أنه محب لها واله بها، فأغمضت «رافينا» عينيها حتى لا ترى المصابيح، والمرح الذي ارتسم على وجهه، وقالت:

– إنني أحاول يا «مارك» أن أبدو عروسًا سعيدة في الحفل. إنها لا تكاد تكون غلطتي إذا لم يستطع قلبي مشاركتهم. وتوقفت الموسيقى عن العزف، وحانت اللحظة التي يقدم فيها الناس لـ«البادرونسيتا» هدية الحظ السعيد، هؤلاء الناس الذين توافدوا يحدوهم حب الاستطلاع لرؤية عروس «البادرون»، ويشعرون بالشفقة نحو هذا الرجل الذي قاسى كثيرًا من مأساته، وهو الآن يعيد بناء حياته مع عروس جديدة شابة. تجمع الناس حول العروسين، وتقدمت فتاة تفوهت ببعض الكلمات الخجلة، وقدمت إليها هدية غير مألوفة، وكانت الهدية ظبيًا منقطًا، بعيون واسعة وسيقان طويلة، وكان دور «رافينا» أن تقوم على رعايته وتدليله. ربت «مارك» الظبي وقال مبتسمًا:

– من أين حصلت عليه؟ تقدم أحد الفلاحين وانحنى أمام «رافينا».. وقال:

– ابني الملاح أتى به من رحلة بحرية كان يقوم بها. سيدي «الباردون».. زوجتك يبدو على وجهها تعبيرات ذات مغزى، والظبي يجب أن يكون ملكًا لها. هز حديثه مشاعر «رافينا» وقالت له:

– أشكرك.. أخبرهم يا «مارك» كم أنا ممتنة بهديتهم. مست يده كتفها،

وأحست بالدفء يسري في خلال بلوزتها الحريرية، فقال لها:

– إنه في وسعهم أن يشعروا بسرورك... يا عزيزتي. قالت:

– ألف شكر. وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وقورة، وكانت عيناها مخضلتين بالدموع بينما تشعان الشعور بالامتنان والخجل، لأنها استطاعت أن تعقد صداقتها مع أهل «سردينيا» الذين يتصفون بالطيبة. وكان الوقت يشير إلى منتصف الليل عندما بدأت الجموع تستقل عرباتها أو تمتطي دوابها عائدة إلى ديارها. وكانت تصيح وهي تودع العروسين قائلة:

– وداعًا! ليلة طيبة!

– حفلا سعيدًا. وبدأ وقع الحوافر يخفت تدريجيًا، وهي تبتعد عن المنزل، وأطفئت المصابيح واحدا تلو الآخر. ووجد «البادرون» وعروسه نفسيهما وحيدين في فناء الدار. واستند «مارك» إلى شجرة سرو، وراحت عيناه تلاحظان الطريقة التي يقبع بها الظبي على ذراع «رافينا» وكأنه طفل صغير. فقال لها:

– يبهجك هذا الظبي الوليد... أليس كذلك؟ قالت:

– لم أمتلك شيئًا يبهجني مثل هذا الظبي، وإنني أفكر في اختيار اسم يناسبه وأفضل أن أطلق عليه اسم «بامبو» إذا لم يكن هذا الاسم يثير في نفسك شيئًا. قال «مارك» بكسل:

– يبدو هذا الاسم غريبًا. علينا أن نجد له مأوى في الإسطبل. هناك يمكن أن يعقد صداقة مع مهر يتيم. حملا الظبي ووضعاه إلى جوار المهر الذي أجفل وصهل، وأراد «مارك» أن يهدئ من روعه، فربت ظهره بيده، وسطع الضوء من مصباح معلق، فكشف عن الندوب التي بدت واضحة على يديه، وتطلع إليها «مارك» فرآها تحدق إلى هذه العلامات الرهيبة، وأدرك أنها أثارتها، وتطلعت عيناها إلى عينيه، فشاهدت فيهما رغبة متأججة، فقال لها:

– هل تحبين ركوب الخيل؟

– أجل.. قليلا. قال:

– غدا ستمتطين جوادًا معي لنقوم بجولة سويًا. أما الليلة.. وصمت قليلا.. ثم واصل حديثه:

– أما الليلة.. فسوف تتعلمين كيف تعيشين مع وجهي ولمسة يدي التي قد تحرق جسمك. وقبل أن تشرع في التحرك، لف ذراعيه حول وسطها، وبدأت خطواته تغادر الإسطبل، وهو يحملها ليمر بها من تحت البهو المؤدي إلى المنزل الغارق في الصمت. والآن أصبحا وحيدين تمامًا. بعدما انتهت الحفلة. وشعرت «رافينا» بضربات قلب «مارك» تدق وهو يرتقي درجات السلم ليصل بها إلى برج الفارس. كانت يداه قويتين وهما ممسكتان بها وشعرت بأنه ليس هناك أي سبيل للهرب منهما. وأخيرًا وصلا إلى باب دفعه بقدمه فانفتح، وكانت القناديل المعلقة بجوار الفراش مضاءة، وتلقي بظلالها المتوهجة إلى الأغطية المطرزة التي تكسو السرير الكبير، وتطلعت ببصرها إلى الفراش ثم إلى الوسادتين عندما أنزلها «مارك» عن ذراعيه لتقف على قدميها. ترنحت «رافينا» من جراء المرح الذي استمتعت به، وشراب الجنوب الذي انتشت به، ولأنه حملها على ذراعيه إلى غرفة العروس بمقصد لا يخطئ معناه، ولم تشعر إلا ويدها تمسك بأحد أعمدة السرير، وتاجها الأحمر يهوي من فوق رأسها، ووشاحها يتهدل فوق كتفيها. وشخصت ببصرها نحو «مارك» فامتلأت عيناها بالخوف من هذا الغريب الأسمر الذي يعد زوجها.. وهو ينظر إليها بعينين سوداوين تحترقان بلهب مكبوت. قال لها بهدوء:

– لم يكن من شروط الاتفاق أن نعيش منفصلين. أنت تعرفين بنوده قبل زواجنا، ولابد من أنك أدركت معنى كل كلمة من كلماتي. إنني أريد زوجة. وابيضت أصابع يدها وهي تقبض على عمود السرير، ثم قالت:

– لكي أنجب لك ولدًا.. آه أجل.. أعرف الشروط يا «مارك»، ولم يراودني الأمل يومًا بأنك سوف تعدل عنها، بل لم أتوقع ذلك منك.

– هل كنت تتوقعين أن تجدي عاشقًا؟ واجهت عينيه وهي تقول:

– طبعًا.. أنا لست طفلة يا «مارك». أنا أعرف أن في وسع الرجال الشعور بالرغبة دون الإحساس بالحب. سألها:

– أي رجل علمك هذا؟ أجابت:

– المرأة تعرف أشياء كثيرة دون حاجة إلى أن تتعلمها. وتركت شعرها يتهدل حتى وصل إلى مستوى قلبها بينما كان «مارك» يخطو خطوة كبيرة نحوها ويقبض على رسغها، ثم يقول لها:

– هل تظنين أنني لا أعرف أنك تشيرين بذلك إلى «رودري برينين»، وأنك ما زلت تهتمين به حتى الآن؟ سألته:

– وكيف لي أن أقول إنني لا أشعر بشيء؟ كيف لي أن أنسى السنوات السعيدة؟

فاشتدت قبضة «مارك» على رسغها وكأنه يبغي تحطيم عظامها، فنظرت إليه ورأت في عينيه صورة لكل ما فعله به «رودري» الذي شاطرها أسعد أيام الطفولة وسنوات المراهقة، وحفلات الرقص التي دعاها إليها، وهو متألق في زيه العسكري.. ولكنه كان يبدو لها ضعيفًا في حين ترى «مارك» قويًا لا تنثني قناته. قالت له:

– إننا نحكم على الناس من زاوية شخصية بحتة، فأنت تكره «رودري»، وأنا أدرك... فقاطعها «مارك» قائلا:

– أنا لا أفهم كيف يمكن أن تحبيه؟ وتوقف قليلا عن الحديث فرأت وجهه كالثوب الأبيض، وعينيه الغاضبتين تعكسان نظرة ألم، ثم أردف يقول:

– كلما نظرت إليك رأيت «برينين» في عينيك، وكلما اختلينا سويًا رأيته يشاركنا الغرفة. فقالت له:

– لأنك تحاول دائمًا أن تذكر اسمه في حديثنا. هل من المحتم عليك أن تبدو قاسيًا هكذا يا «مارك»؟ ألا تظن أن «رودري» قاسٍ جدًا هو الآخر؟

– إنني أتوقع أن يصحو ضميره، هل عاد إلى «إنجلترا» لأن ضميره دأب على

مطاردته، ورأى أن يغرق دوي الحادثة بين ذراعيك؟ صمت «مارك»، وعندما اقترب منها سطع ضوء المصباح فوق صفحة وجهه ثم أردف يقول:

– هذه الليلة سوف تنسين «رودري»، سوف تنسين كل إنسان في الوجود، إلا إياي! أنصتت «رافينا» إليه ولم تستطع أن تتفوه بكلمة، وكان الصمت مطبقًا وهي واقفة تتطلع إليه، وإلى عينيه السوداوين، كسواد الليل الذي غاب فيه القمر، وأحاط المنزل في كنفه. وكان البحر صامتًا، وأشجار السرو ساكنة، وألسنة الغضب والألم تتوهج في عينيه. وأخيرًا.. قالت شيئًا. هل تفوهت باسمه؟ كل ما تعرفه أن الأرض اختفت من تحت قدميها عندما حملها على ذراعيه، وأخفى الندوب في لهب شعرها الداكن. هل كان «مارك» صادقًا عندما أخبرها في اليوم التالي بوجود بعض المشكلات في أحد مصانع الموالح وضرورة ذهابه إلى هناك لحلها؟ لم تستطع «رافينا» أن تقرأ شيئًا في عينيه بعد أن استيقظت من نومها، واكتشفت وجوده بجوارها، وشعرها الأحمر ملفوف حول عنقها. رحل «مارك» قبل الظهر، وفي المساء وصلت رسالة تخبرها بأنه سوف يتغيب يومين أو ثلاثة، وأرخت «رافينا» عينيها وهي تتناول طعام الغذاء مع «جوكاستا» حتى لا ترى مدى الارتياح الذي غمرها لغياب «مارك». إنه ارتياح يبعث على الاسترخاء للتخلص من التوتر المستمر الذي يثيره وجود «مارك»، وفي وسعها الآن أن تستكشف الشاطئ الذي يقع تحت المنزل. الحياة تدعوها إلى الارتماء في أحضانها و«رافينا» تعشق البحر وخاصة أنها سبّاحة ماهرة. وكم كانت ممتعة تلك العطلات التي أمضتها على الشاطئ بصحبة «جاردي» و«رودري». حاولت أن تسدل الستار لتمنع عقلها من التفكير في «رودري»، ولكنه كان يقتحم دائمًا خلوتها بطريقة تجعلها تحس بأنه يفكر هو الآخر فيها، فتنهدت وأحست أن «دونا جوكاستا» تراقبها بحدّة وسألتها:

– هل تفتقدين وجوده؟ فتطلعت «رافينا» إليها، ووجدت عينيها مسلطتين

عليها قائلة لها:

– هل تقصدين «مارك»؟

– «ماركوس»؟ أجل! ومن سواه؟ هل هناك شخص آخر غير زوجك تفكرين فيه؟ واكتنف سؤالها شك حاد فقد كانت «رافينا» تعرف أن الجدة ستراقب حركاتها طوال فترة غياب حفيدها وربما طلب منها أن تراقبها عن كثب. قالت «رافينا» بحرص:

– أشعر بحنين إلى الوطن. هذا كل ما في الأمر. كل إنسان ما عدا «مارك» يعد غريبًا عليّ، وغدًا سأعتاد بيتي الجديد. تجهمت «جوكاستا» وقالت:

– إنني أدير هذا المنزل منذ أن ماتت «دوناتا»، ولن يطول بك الزمن حتى تكوني قد تسلمت مفاتيحه مني. قالت «رافينا» بتأكيد واضح:

– أنا..أنا لا أريد المفاتيح. إنني سعيدة بأن أدع لك تدبير أمر «الكازا». إنني لا أريد أن أقلب وضع الأمور أو تغييرها. سألت الجدة العجوز:

– لماذا؟ ألأنك لا تحاولين الاهتمام به؟ وكان هذا الرأي قريبًا من الحقيقة. وكانت «رافينا» سعيدة عندما تحولت لتناول قطعة من الكعك المغطى بالكريم، وبعد الغذاء استأذنت من «دونا جوكاستا» في الانصراف للقيام بكتابة بعض الرسائل، وبعدما استجمعت أعصابها قامت بكتابة رسالة إلى «جاردي» تخبره فيها بسعادتها في المنزل الذي تحيط به أشجار السرو، ووصفت له الحفل الذي أقيم احتفالا بزفافها. والقرية التي تقع فوق التل... ثم راحت تكتب رسالة إلى «رودري»، ولكنها ما كادت السطور تبلغ منتصفها حتى كورت الخطاب في قبضة يدها وألقته في نار المدفأة. فقد رأت أنه لم يعد لديها شيء تضيفه إلى ما قالته له في يوم زفافها. فهي تعرف تمامًا أن سلامة صحة «جاردي» تتوقف أساسًا على السرية التامة لكل ما حدث، وإذا اعترف «رودري» لأبيه بأنه قتل ابن «مارك»، فمن المحتمل أن النبأ سيؤدي إلى قتل «جاردي». وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى مكتب بريد

القرية لتبعث برسالتها ثم اتخذت طريقها على الدرب المؤدي إلى ساحل البحر. وعندما بلغت الشاطئ وجدته مهجورًا فتخلصت من خفها، وجرت إلى الأمواج المتكسرة لتستمتع ببرودة الماء فشعرت بالهدوء والطمأنينة. وفجأة قطع عليها خلوتها صوت نباح كلب صغير مبلل بالماء، أخذ يتسلل من بين الصخور ليقترب منها، ويقف أمامها ساكتًا مشدوهًا مثلها. وتحول نباحه إلى هرير قصير. قالت له:

– حسنًا، أنا لست أخشاك. وأنت بالتأكيد لا حاجة بك إلى أن تخشاني. وهمد الهرير، وبدأ الكلب يتقدم إليها وهو يهز ذيله. كان كثيف الشعر، تتهدل خصلات منه فوق عينيه. شكله يدعو إلى الضحك وهو مبتل، وهذا النوع من الكلاب تحبه «رافينا» أشد الحب. سألته:

– من أين أتيت؟ ومدت له يدا حانية، فأحنى رأسه، وأخرج لسانه ليلعق يدها، بينما راح ذيله يتأرجح بقوة، وفجأة سمعت «رافينا» صوتًا ينادي:

– «تيو»! كان الصوت آتيًا من وراء الصخور، فتطلعت إلى اتجاهه، ورأت رجلا ينسل من بين الصخور، عاري القدمين، شعره مجعد، نحيل القوام، يرتدي سروالا ضيقًا أزرق اللون، تعرضت أكثر أجزائه للبلل، وقميصًا أبيض اللون وصلت فتحة الصدر إلى وسطه، وتتراقص ميدالية على صدره البني العاري. واستطاعت نظرته الجريئة أن تلتقط كل صغيرة وكبيرة من مظهر «رافينا»، ثم استقرت أخيرًا على شعرها الذي استحال لهيبًا عندما سقطت عليه أشعة الشمس، وراحت الريح تعبث بخصلاته فوق كتفيها. قال الشاب وهو يقترب منها، وقد انفرجت شفتاه عن صفين من الأسنان البيضاء:

– عثرت على صديق لك يا «تيو».. أليس كذلك؟ صمت قليلا ثم قال بالإيطالية:

– صباح الخير يا آنسة. ثم أردف يقول بالإنجليزية وكأنه يعرف شخصية من يحدثها:

– كيف للإنسان أن يعرف مبلغ سعادته في هذا الصباح عندما يعثر على صديق فوق رمال الشاطئ. تأملته «رافينا» مليًا، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها رأته في حفل الأمس. كان لديه ذلك النوع من النظرات التي لا يستطيع المرء نسيانها. وتقدم إليها وانحنى انحناءة خفيفة وقال:

– يجب أن أقدم نفسي إليك. أنا «ستيليو فابريزي». لا أدري إن كنت قد سمعت عني أم لم تسمعي، إنني يا سيدتي رسام! وفي الحال تذكرت «رافينا» الاسم ولكنها شعرت بعينيه تدغدغانها حين تحدثت لتقول له:

– هل تقوم بطلاء البيوت يا سيد؟ إنه عمل مثير. أظن أن بيوت البحر الأبيض التي طليت بالألوان أصبحت شيئًا فريدًا، إذ إنها تنسجم جيدًا مع أشعة الشمس والبحر. ضحك الرسام بمرح وقال:

– من الغرور أن أدعي بأنني أحظى بشهرة كبيرة. أنت العروس الجديدة وسوف تنسجمين بدورك مع أشعة الشمس والبحر، وكان ظني أن تكوني شقراء باردة ذات نظرة نافذة ومقلقة. قالت بهدوء:

– إنني آسفة أن أخيب تقديرك، يا سيد «فابريزي». قال وعيناه تأسران عينيها:

– لم يخب ظني بل أعتبر نفسي سعيد الحظ لأن أجد فيك الشخص الجدير برسمه. إن صور عرائس أسرة «دي كورزيو» رسمها مشاهير الفنانين، وعندما سمعت أن «مارك دي كورزيو» قد تزوج ثانية، قررت أن آتي وألقي نظرة إلى عروسه. قالت لتسأله:

– أواثق أنت بأن زوجي سوف يختارك لرسم صورتي؟ رأت«رافينا» فيه الجرأة والشجاعة، وأحست أنه من السهل عليها مكايدته، وهو في ذلك يختلف عن «مارك» الذي يموج عامل الخوف دائمًا في أعماقه، ويدرك تماما أنه متحجر القلب، وتبدو قساوته على وجهه. وانتشلها الرسام من تفكيرها حينما قال:

– «مارك دي كورزيو» رجل مشهور، وحيث إنني أقيم في فيلا صغيرة تقع على الساحل الزمردي، فإنه سوف يستدعيني لرسم صورة زيتية لعروسه البريطانية.

– أنا من مقاطعة «ويلز» يا سيد. وجال ببصره نحوها متفحصا فشاهد شعرها الأحمر، وعينيها الخضراوين، وشموخها وهي تقف بين الأمواج المتكسرة، والزبد المتطاير يتناثر خلف شعرها. قال لها متمهلا:

– أجل، أرى فيك سحرًا أخاذًا، ومن دواعي السرور أن أرسمك يا سيدة «دي كورزيو». قالت:

– إنني أفترض جدلا أن «مارك» سوف يستدعيك لرسمي. قال الرسام بصوت يشوب الكبرياء نبرته:

– لا أنتظر عودة زوجك حتى أسأله القيام برسم صورة لك، فقد اعتدت ألا استأذنه عندما يعجبني منظر طبيعي أخاذ يدفعني إلى رسمه، فما بالك عندما أرى امرأة جميلة!

– أكاد أكون جميلة يا سيد.. قال مبتسمًا:

– إذن دعينا نقول إنك فاتنة، مثيرة، ما رأيك في «سردينيا».. هذه الجزيرة التي نطلق عليها نحن الإيطاليين هذا الاسم؟ إنها تشبه الخف. أجابت:

– إنني أجدها جذابة، نقية من كل فساد، ولو كنت فنانة لتوقعت ألا أقاوم إغراءات الجمال. قال:

– عروس لا تقاوم الإغراءات. وتطلع إليها «ستيليو فابريزي» بنظرة يشوبها حب الاستطلاع، نظرة دفعتها إلى البحث عن خفها الذي تركته في منتصف الشاطئ، فقامت لإحضاره. وعندما سار إلى جوارها رأت فيه رجلا قوي البنيان ولكنه ليس في طول «مارك»، وفي لحظة تجسدت فيه صورة «رودري» وهو يسير إلى جوارها. وأخيرًا قال لها «ستيليو»:

– حلقة الصندل التي يتعلق بها إصبع القدم هل هي مؤلمة؟ ولوهلة لم تستطع

«رافينا» أن تدرك المعنى الذي يعنيه، ثم عرفت أنه يشير بطريقة مهذبة إلى الحياة في الجزيرة، وإلى كونها عروسًا لرجل مثل «مارك»، فتألقت عيناها ببريق أخضر عندما غمرتهما أشعة الشمس فتوتر الفنان وهو يتطلع إليها. قالت له:

– إذا سألتني يا سيد «ستيليو» عما إذا كنت أشعر بالراحة في «الكازا» فإنني سأجيب عنك بأن الأمر سيستغرق من المرء بعض الوقت حتى يحس بالاستقرار في وطن غريب. فقال متعمدًا:

– لديك عينان جميلتان يا سيدة، ولكنني لا أرى أي نجوم فيهما. سألته:

– هل تبحث عنها في وضح النهار.. يا سيد؟ خيّم الصمت عليهما... ثم قال:

– يجب أن تشاركيني طعام الغداء. لديّ زورق صغير في المياه وراء الصخور، ولديّ سلة وضعت فيها مديرة منزلي ألوانًا مختلفة من الطعام، هل ترغبين في مشاركتي؟ تطلع بصرها إلى لسان الأرض الداخل في البحر حيث برز جناح من «الكازا»، وفكرت «رافينا» في أن «دونا جوكاستا» تتوقع عودتها لتناول طعام الغداء معها في الصالون، وسوف تسألها عن المكان الذي قضت فيه كل فترة الصباح، وعن الشخص الذي أمضت معه كل هذا الوقت، ولذا وجدت من الصعوبة أن تلبي دعوته لتناول الطعام معه ومع كلبه، لذلك قالت له:

– شكرًا. حقًا إني جائعة، لكن عبور الطريق إلى «الكازا» يحتاج إلى وقت.

صوب الرسام بصره إلى المنزل ورأى ستارات النوافذ مسدلة تحول دون دخول شمس الظهيرة إلى غرفه، والشرفة المطلة على البحر تبرز فوق الربوات، ويبدو أن للمنزل مظهرًا منيعًا ومنعزلا، وكأنه شيد ليبعد عنه أي طارئ غريب. تمتم «ستيليو» قائلا:

– لن يضيق زوجك إذا ما شاركتني طعام الغداء. قالت:

– «مارك» في رحلة عمل.

– فهمت... ترك عروسه ليلهو قليلا.. ما رأيك؟ قالت:

– لا أشعر بأي ضيق. «مارك» لن يدع عمله ينحدر إلى الحضيض بسببي. وكز «ستيليو» على أسنانه وهو يقول:

– يا إلهي.. لو كان زوجك إيطاليًا فلن يدعك وحدك هكذا، بل سيقضي حياته بصحبتك لا يفارقك ليل نهار! قالت:

– ما أرهب هذا وأشبهه بالحجز الانفرادي، إنه السجن. قال «ستيليو» وكأن صوته اللاتيني يربت بحنان كلماته:

– إنك سجينة الحب. لا يسع الرجل العاشق إلا أن يقول: إذا لم يكن عندي شيء غير باقة من الورد فإنني سوف أقاسمك إياها!

– أنت شاعر يا سيد «فابريزي»، ولكنك بالكاد تتلاءم مع متطلبات الحياة اليومية. أنا أفضل أن يقتسم الرجل طعامه معي. إني جائعة. قال لها مؤنبًا:

– أنت تقولين عبارات تكاد تتفق مع لهيب شعرك، والجواهر التي تتلألأ في عينيك.

– إن الشعر يتبدد إذا ألقي إلى مسامع امرأة جائعة. هل لديك قهوة في سلتك؟ قدم إليها يده وهو يقول:

– دعينا نذهب وسوف ترين. تسلقا الصخور، وبلغا خليجًا أرسى فيه «ستيليو» زورقًا صغيرًا في مؤخرته محرك فنقل من الزورق سلة الطعام، وتحت شجرة وارفة الظلال جلسا لتناوله وكان يتكون من السجق والخبز والجبن والزيتون وشرائح الليمون. وبعدما فرغا من الأكل احتسيا القهوة الكثيفة، وانتابهما شعور بالتخمة فطلبا الراحة، وكان الجو باردًا حولهما، بينما كانت أشعة الشمس تبعث الحرارة خارج الرقعة التي جلسا فيها. قال لها «فابريزي»:

– يجب أن تتيحي لي الفرصة لرسم صورة لك يا «رافينا».

– يجب أن أستشير «مارك» في ذلك يا سيد؛ لأنه تحدث معي بصدد رسم صورة لي، لكنني لم أكن شغوفة بالفكرة. ومال عليها «ستيليو» يتفرس وجهها ثم سألها:

– ولم لا؟ هل أنت خائفة من فنان فطن سوف يرى أشياء في عينيك تكشف عن امرأة غير سعيدة البتة؟ دفنت أصابعها في الرمل الناعم، وودت أن تقول له إنها سعيدة تمامًا لكن «ستيليو» راح يربت يدها. كان طيب القلب متفهمًا لعواطف الآخرين، ويدرك أن الشقاء جزء من الحياة مما يجعل الناس موضع الاهتمام، وخاصة بالنسبة إليه كفنان. قال لها:

– إن الجو يكون أكثر برودة فوق سطح الماء. دعيني أصحبك بزورقي في رحلة بحرية. إن زوجك غائب عنك. سحبت يدها من تحت يده وقالت:

– وهل تظن أن الفأر من حقه أن يلعب في غياب القط؟ ضحك «ستيليو» وبصره مصوب نحو شعرها الأحمر، وقال:

– «رافينا» إنك لست فأرًا. إنك تشبهين لوحة للرسام «تيتيان» حيث تعكس العينان الحيوية والخجل. أنت تختلفين تمامًا عن «دوناتا». سألته:

– هل كنت تعرفها؟ شعرت «رافينا» بأنفاسها تتلاحق وهي تسأله عنها إذ سرعان ما تتمثل أمام عينيها صورة المرأة التي أحبها «مارك» عندما يبدأ أي شخص الحديث عنها.. أجاب «فابريزي»:

– التقيت بها في صحبة «مارك» في «روما»، ولم يكن قد مضى على زواجهما فترة طويلة، ورسم صديق لي صورتها في مرسمه. كانت مخلوقا جذابا ذات عينين داكنتين، وفم كالزهرة المتفتحة. وأخبرني صديقي الفنان بأنه كان مأخوذًا بها عندما رسمها، لأنها تدعوك إلى حبها وهي تعيش قصة حب. خفضت «رافينا» عينيها وكأنها ترى بوضوح إشعاع جمال «دوناتا». فسألته:

– ما هو الانطباع الذي تركه «مارك» عليك في ذلك الوقت؟ قال «ستيليو»

عن عمد:

– كان في صورة رجل له مهابة رومانية، وهو جالس في مرسم «أرنو». كان يدخن. وعيناه تشعان بالرضا وهو يراقب اللمسات الأخيرة التي يضعها الفنان في صورة «دوناتا». أتذكر أنه وزوجته كانا ينعمان بكل شيء يرغبان فيه.. الجمال.. الثروة.. الحب. ولم أشاهد أي ظلال للشقاء في عينيها أو بادرة تشير إلى أنه وزوجته سيواجهان مأساة في ذلك اليوم. نهضت «رافينا» واقفة على قدميها، وراحت تنفض الرمل العالق بثوبها القطني وقالت:

– بربك، لا تقل المزيد عنها. خذني في الرحلة البحرية، أرجوك. وقطعا شوطا في عرض البحر حتى وصلا إلى إحدى الجزر الصغيرة حيث يوجد كهف يمكن للزورق أن يندفع خلاله، وكانت المياه تحت الزورق صافية وزرقاء.. يمكن من خلالها رؤية الأسماك وهي تقفز كالسهام. ابتسم «ستيليو» وقال:

– هنا يجب أن أرسم صورتك، وأنت جالسة على الصخر مثل حورية تشدو بأغنية. قالت وهي تعبث بأصابعها في الماء:

– من المفروض أن أشدو بأغنية من أغنيات «ويلز». وعندما بدأت تغني ترددت أصداء الأغنية بين جنبات الكهف، مما أثار الكلب «تيو»، وراح ينبح نباحًا أشبه بنحيب جنية «إيرلندا» التي فقدت عزيزًا لديها، فانفجر «ستيليو» ضاحكًا. وبدأ يدير المحرك، ويتجه ثانية بالزورق إلى عرض البحر، وكانت الشمس قد بدأت في المغيب عندما ألقى الزورق مرساه تحت المنزل، واشتعلت الشمس بلهب قرمزي ألقى ظلاله على البحر، وأخذت سحب الصيف تستكين في الأفق، وعندما تطلعت «رافينا» إلى مغيب الشمس أدركت عدد الساعات التي أمضتها غائبة عن «الكازا». قال لها «ستيليو» وهو قابع في زورقه:

– أحب أن أبدأ غدًا رسم الخطوط الأولى لصورتك. وقفت على الشاطئ تلوح

له بيدها، وترسم على شفتيها ابتسامة وهي تقول له:

– لن أستطيع، يجب أن أستأذن «مارك» أولا. سألها «ستيليو» ساخرًا:

– هل تخضعين دائما لأوامر زوجك؟ بدأ الجو يميل إلى البرودة، والسحب تلقي وشاحها على الشمس الغاربة، وكانت «رافينا» تدرك أن الكآبة والانقباض قد يأتيان مع ختام الحفل. قالت له:

– أنت لا تعرف أن «مارك» لم يعد الشخص الذي التقيت به في «روما». إن من الكياسة أن تتحدث معه أولا... يا «ستيليو». قال لها:

– سأمتثل لطلبك يا «رافينا». الوداع.

– وداعًا يا «ستيليو». وداعًا يا «تيو». وتردد نباح «تيو» عبر الماء.. بينما أخذ صوت المحرك يخفت تدريجيًا عندما أخذ الزورق يبتعد عن الشاطئ وأخيرًا خيّم صمت، ولكنه صمت لن يطول أمده فبعد لحظات سوف يبدأ المد وتتلاطم الأمواج فوق الصخور، فأدارت «رافينا» ظهرها للبحر، واتخذت سبيلها إلى المنزل. وأرخى الليل سدوله، فأضيئت مصابيح باب الفناء، ودلفت إلى المنزل على أمل أن تتجنب لقاء «دونا جوكاستا»، لكن السيدة العجوز كانت تجلس على مقعدها بجوار المدفأة، وقدماها الصغيرتان تستريحان فوق المقعد الصغير، وعيناها الحادتان تتطلعان إلى عقارب الساعة التي تشير إلى الوقت الذي عادت فيه العروس الهاربة. سألتها:

–أين كنت طوال اليوم؟ أجابت:

– على الشاطئ. كانت «رافينا» تقف وسط الصالة بقوامها النحيل، وشعرها المشعث، وثوبها الغضن، وذرات الرمل عالقة بأطرافه، وأحست أنها صغيرة أمام الجدة، فراودتها الرغبة في الفرار، لكن هروبها كان يدينها بارتكاب جريمة، وهي لا تشعر بأي جرم في تمضية الساعات بصحبة «ستيليو فابريزي»، فقد ساعدها على أن تخفف من ألم بعادها عن وطنها، وهي ممتنة له. قالت الجدة:

– «بابتستا» قالت إنك في صحبة رجل. أرسلتها للبحث عنك. ما قولك؟ قالت «رافينا» بصوت يشوبه التحدي:

– «بابتستا» تتمتع بحدّة البصر. التقيت على الشاطئ بصديق لـ«مارك» هو السيد «فابريزي». التقطت «دونا جوكاستا» أنفاسها وقالت متسائلة:

– الفنان؟ أجابت «رافينا»:

– أجل.

– كل الفنانين مرحون ولكنهم أشرار، ومع ذلك أمضيت اليوم كله معه؟ قالت «رافينا»:

– أغلب اليوم... وبصحبة كلبه! ثم اتجهت لترتقي درجات السلم وهي تقول:

– إنني متسخة، وأرغب في الاستحمام. قالت السيدة العجوز:

– لحظة أرجوك.. فاستدارت «رافينا» طائعة فقالت السيدة العجوز:

– لن تري هذا الرجل مرّة أخرى... إنني أمنعك. قالت «رافينا» وقد شاب الغضب صوتها:

– أنا لست طفلة يا «دونا جوكاستا». ليس في وسعك أن تمنعيني من إقامة أية صداقة مع أحد، أو تنصبي نفسك تنّينًا عليّ لمجرد أن «مارك» غائب عن البيت عدّة أيام. إنني لن أنصاع لأمرك.

– «ماركوس» تركك في رعايتي.

– هل طلب منك حبسي في البرج، وأن يقتصر طعامي على قطعة خبز وماء؟ حسنًا، لن أنوي أن أكون سجينة في هذا البيت المظلم. سأتوجه غدا إلى الشاطئ، وأرجو أن أجد السيد «فابريزي» هناك. إنه يضحك دائما ياسيدتي. إنه ممتلئ بالحياة ويتطلع إلى المستقبل، ولا يعيش في الماضي كل وقته. وأخذت «رافينا» ترتقي الدرجات بسرعة، وعبرت البهو إلى الفسحة المؤدية إلى برج الفارس، حيث كانت وجنتاها ساخنتين، وقلبها يدق دقات

متلاحقة، وشعرت بأنها تكره «مارك» لأنه أصدر أوامره بالتجسس عليها كما تكره هذا البيت. لذا قررت أن تقضي اليوم بطوله غدًا في أحضان الشمس والريح... وفي صحبة «ستيليو»!

- 5 -

شعرت «رافينا» بإجهاد في اليوم الذي أمضته على الشاطئ، لذلك استيقظت في اليوم التالي في ساعة متأخرة من النهار، ورأت أشعة الشمس تملأ غرفتها، وأدركت أنها نامت فترة طويلة. جلست على الفراش، فوجدت صينية بجوار السرير، وضعتها على ركبتيها وصبت فنجانًا من القهوة، وأكلت المربى والبيض بشهية. وأحست أن النهار ملك لها، تفعل ما تشاء، فإن «دونا جوكاستا» لم تستطع أن تجعلها سجينة غرفتها. وبعد انقضاء ساعة، اغتسلت «رافينا» وعقصت شعرها في تصفيفة ذيل الحصان، وارتدت بلوزة وسروالاً فبدت أكثر شبابًا، وعندما تطلعت إلى المرآة توارد إلى ذهنها صورة «دوناتا» المعلقة في برج «المادونا»، وتذكرت ما قاله لها «ستيليو فابريزي» عن «مارك» عندما التقى به في «روما» منذ ست سنوات. كان بهي الطلعة، سعيدًا، بلا ظلال شقاء في عينيه. راودتها الرغبة في أن تشاهد الصورة الآن، قبل أن تذهب إلى الشاطئ وأسرعت في فتح باب غرفتها، فلم تجد أحدًا، فالخدم منهمكون في تنظيف وتلميع الدور السفلي، ولن تحظى غرف الدور العلوي بالاهتمام إلا في ساعة متأخرة من النهار، وهذا يتيح لها فرصة للتسلل إلى برج «المادونا» دون أن يلحظها أحد. انسلت من باب صغير في جدار برج «الفارس»، ووجدت نفسها أمام جسر حجري صغير يربط بين البرجين، وكان برج «المادونا» يشبه برج «الفارس» في تصميمه، فعثرت على باب صغير في

الجدار قادها إلى ممر معتم يتسلل إليه النور ضعيفًا من نافذة ضيقة، وكانت الغرفة التي عاش فيها «مارك» مع «دوناتا» لا تختلف عن غرفة العروس التي يشغلها الآن مع «رافينا». كانت غرفة «دوناتا» تكسوها الكآبة، وأسرار الماضي أصبحت رهينة أثاثها وتحفها. والستائر المسدلة تطوي الهمسات التي دارت بين الجدران، والسجادة صامتة صمت الدخان وهو يسعى هادئًا، والحائط يحمل صورة الفتاة التي أحبها «مارك». لم تستطع «رافينا» أن تدرك ملامح زوجة «مارك» الأولى أو الثياب التي ترتديها وكانت الشمعدانات مطفأة وهي قابعة تحت اللوحة، وإلى جوارها علب الثقاب وتشير إلى أن شخصًا ما يأتي بين حين وآخر ليشعلها ويقوم بتأمل اللوحة وسط السكون الهامس الذي يشيع في أرجاء الغرفة. أشعلت «رافينا» الشموع فألقت بأضوائها على الصورة، فرأت الثوب الذي ترتديه «دوناتا». كان يمثل عصر «ميدتشي». وقد تهدل في ثنايا رقيقة فأبرز قوامها النحيل، وتناثرت اللآلئ على شعرها الأسود وصفوف أخرى منها تحيط بعنقها الأبيض الطويل. من الممتع أن يتأمل المرء صورتها بقدر ألمه لفقدها. حملت «رافينا» شمعدانًا، وأحست أنها فقدت الإحساس بالزمن عندما راحت تتأمل الفتاة التي منحت «مارك» نعمة المرح لدرجة أن أية امرأة لم تستطع أن تشغل - بعد رحيلها - مكانها في قلبه أو عقله أو أحاسيسه. كانت تبدو شابة و «مارك» في العشرين عند زواجهما. كانت «دوناتا» هبة من السماء. التقى بصر «رافينا» بعيني «دوناتا»، وفي لحظة رأت فيهما الحيوية والوعي والعداء لها. وفجأة سرى تيار من الهواء أطفأ اللهب المشتعل في الشمعة فتراقصت الظلال في الغرفة، وعندئذ انتابها ذعر شديد، فأسرعت إلى الباب تبغي الهروب، وعالجت المقبض يمينًا ويسارًا، لكن الباب كان مغلقًا بل موصدًا. وقفت «رافينا» مذهولة، ولم تصدق أنها أصبحت سجينة البرج، وأن أحدهم تسلل عبر الممر الضيق، وأغلق الأبواب وراءها وهو يعرف أنها هنا وحدها مع الصورة. تملكها الغضب،

www.liilas.com

وراحت تدق الباب بقبضة يدها مرّة ومرتين حتى أدركت أن لا جدوى من محاولتها، وأنها أصبحت سجينة لأحد سببين: إما لمعاقبتها على ما فعلته بالأمس أو بهدف إرهابها. أدارت ظهرها للباب، وأسرعت إلى أقرب نافذة وأزاحت الستارة جانبًا، وفتحت مصراعيها، وأطلت برأسها فوجدت المسافة طويلة بين البرج وفناء البيت الواقع تحتها. كانت عيناها الحزينتان وشعرها المتهدل يوحيان بأنها حورية سجينة البرج منذ مدة طويلة، ولكنها تبحث عن طريقة للهروب أو فارس يسرع إلى إنقاذها. لكن ليس من منقذ. كان الفناء شاغرًا، والعمال في حدائق الليمون مختفين وراء الأشجار، وكانت الريح تهب حول البرج، وصيحات الطيور أشبه بصرخات السخرية، لديها أجنحة تطير بها كما تشاء، أما هي فسجينة هنا حتى يأتي أحدهم ليطلق سراحها. «دونا جوكاستا» سجنتها هنا، أو أرسلت «بابتستا» المطيعة لتفعل ذلك. إنها ظل سيدتها التي لا تفارقها، فهي عجوز الآن وتخشى من أن تعصي الأوامر حتى لا تفقد عملها في هذا البيت. سرت قشعريرة باردة في جسم «رافينا». ولا تدري كم من الوقت مضى عليها وهي سجينة. ولابد من أن تمر ساعات طويلة قبل أن تطلق «دونا جوكاستا» سراحها من البرج، إنه مجرد درس تلقيه على عروس «مارك»؛ لأنها تجرأت وتحدثت إلى رجل. وتحدتها بعزمها على مقابلته ثانية. تطلعت إلى الجدران لعلها تجد سردابًا سريًا. لاشك في أن هذه الفكرة محتملة. فقديمًا في عصر غارات القراصنة، كان الإنسان يشيد بيته بحيث يضم غرفًا سرية، فيها تختبئ أسرته، أو يبني سردابًا يساعدها على الهرب إذا ما فكر المهاجمون في اقتحام البيت. وشرعت «رافينا» في الطرق على أماكن متفرقة من الجدران. لكن لم تكن هناك أية استجابة لطرقاتها أو يدور أي إطار بارز ليفتح لها سردابًا يساعدها على الهروب من الجدران السميكة. دارت بعينيها في أرجاء الغرفة، ووقع بصرها على المرآة فرأت نفسها ترتدي السروال والقميص الصبياني، فلم تصدق أنها

زوجة «مارك»، وبدا لها أن «دوناتا» ما زالت تحتل مكانها كسيدة القصر، أما الصورة التي تعكسها المرآة فهي لا تعدو أن تكون صورة طفلة شقية، وقد قال لها «مارك» ذات يوم وهما يغادران «رافنهول»: «أنت ترتدين ثياب صبي، وأنا أتوقع أن أتزوج بامرأة». أدارت بأصابعها خاتمها الذهبي الذي يدل على زواجهما، وعادت تتجول في الغرفة حتى وقفت أمام النافذة حيث وجدت فيها فجوة عميقة، فقبعت فيها كما يقبع القط المتفطر قلبه، وبدت السماء الزرقاء ساخنة، وأشجار السرو داكنة وهي تناطح عنان السماء. كان الصباح جميلا، لكن «رافينا» ضحكت، لأنها اختطفت بهذه الطريقة الغريبة في خلال هذه الساعة المشمسة التي كان من المنتظر أن تقضيها مع «ستيليو فابريزي»، وكلبه «تيو»، ولابد من أنه حدس بأنها لا تتمتع بالحرية التي تتيح لها أن تنضم إليه في الشاطئ، وتتمتع برحلة بحرية. ولا يدري أن الأبواب أوصدت عليها وأصبحت سجينة. فكرت في «جاردي» الذي يعتقد الآن أنها سعيدة، عندما يتلو رسالتها التي تسلمها الآن منها، لكن أية سعادة تتكلم هي عنها؟ كيف تجدها في مثل هذا البيت المسكون بالفتاة الفاتنة «دوناتا»، وتحكمه سيدة عجوز كانت ترغب في أن يتزوج حفيدها بفتاة من اختيارها. شعرت «رافينا» بوطأة السكون والوحدة تجثم على صدرها، وبخوف مفاجئ من أن يمضي «مارك» غائبا لعدة أيام، فتقع تحت رحمة تصرفات شاذة أخرى، ومزيد من المؤامرات التي تثبط من روحها، وتصبح في النهاية ظلاً مطيعا مثل «بابتستا». عندئذ صرخت قائلة:

– لا. وجرت نحو الباب لتتبين ما إذا كان مفتوحًا أم ما زال مغلقا، ولكنها وجدته موصدًا، وشعرت برغبة في البكاء وبلعت ريقها، وحاولت أن تعزي نفسها بأن «دونا جوكاستا» سوف تطلق سراحها حينما يحين موعد الطعام الغذاء، ولن تكون قاسية فتدعها سجينة حتى يحل الظلام وتسمع نعيق البوم. أخذت وسادة من أحد المقاعد، وأزالت الغبار عنها، وهيأتها بحيث

تستطيع أن تغمض عينيها عليها، وتعود القهقري إلى «رافنهول».. أجل هناك حيث توجد شجرة الدردار، والأرجوحة التي سقطت منها يوم أن دفعها «رودري» عاليًا، وأحست بالسعادة عندما طارت عالية، والخوف يغمرها، وصاحت به ضاحكة كفى، ولكن «رودري» لم يأخذ بصيحتها، وواصل دفع الأرجوحة حتى سقطت منها.. وسمعت صوتًا يقول:

- «رافينا». أحست بفزع وشعرت بألم في ذراعها فقالت:

- أو.. «رودري».. انسحبت اليد فجأة من فوق شعرها بعنف، واستيقظت تمامًا وهي فزعة عندما رأت أن الشخص الماثل أمامها كان «مارك» وأن الألم الذي أحست به كان نتيجة ضغط كتفها فوق سور النافذة. قالت بدهشة:

- «مارك»! قال:

- أنا آسف لإزعاج أحلامك الجميلة. دعكت «رافينا» ذراعها الخدرة، وأحست بدوار قليل ثم قالت:

- لقد.. لقد.. أخلدت إلى النوم. سألها:

- ماذا تفعلين هنا؟ أحست بعينيه تتأملان شعرها، وسروالها الصيداني، وشعرت ببرودة تسري في أوصالها. قالت له:

- أوصد أحدهم الباب عليّ منذ ساعات مضت. جدتك فعلت ذلك يا «مارك». أنا أعرف هذا تمامًا. قال متجهمًا:

- أوصدت عليك الباب؟ الباب كان مفتوحًا، وفي وسعك أن تتأكدي بنفسك. لماذا تتوهمين أن جدتي تفعل مثل هذا الأمر معك؟ قالت:

- أنا لا أتوهم شيئًا. إن «دونا جوكاستا» تكرهني، وتريد أن تخيفني. بدت الدهشة وعدم تصديق كلامها على وجهه. سألها:

- أعتقد أنك أتيت إلى هنا من قبيل حب الاستطلاع. لم نعد نستعمل هذه الغرف فأصبحت أقفالها صدئة.

- أوصدوا الأبواب عليّ، وقرعت، ولكنها لم تفتح. سألها:

- لكن أين كان المفتاح؟

- كل مفاتيح البيت مع «دونا جوكاستا». أخبرتني ليلة الأمس بأنها بحوزتها، وأنها لن تعهد بها لأحد.

- هل سألتها عنها؟ تنهدت «رافينا» وقالت:

- بالطبع لم أسألها. لم نتشاجر بسبب إدارة «الكازا»، وإنما..

- إذن أخبريني بسبب المشاجرة؟

- ذهبت إلى الشاطئ، وكنت أنوي الذهاب اليوم أيضًا. هناك قابلت «ستيليو فابريزي»، وأخذني في زورقه، وقمنا برحلة بحرية، وعندما عدت إلى المنزل سألتني جدتك أين كنت ولما أخبرتها أمرتني بألا أرى السيد «فابريزي» مرّة ثانية، وظننت أنها شخص دكتاتوري فقلت لها بأنها لا تستطيع أن تمنعني من أن أعقد صداقات مع الآخرين. وهذا الصباح لابد من أنها رأتني أعبر الجسر المؤدي إلى برج «المادونا»، وأنا واثقة تمامًا بأنها أمرت «بابتستا» أن توصد الباب عليّ، حتى لا أستطيع أن أذهب إلى الشاطئ.

- وهل أعددت الأمر لمقابلة «فابريزي» هذا اليوم؟ ووقع السؤال عليها مثل لسعة السوط، وتذكرت أن الشخص الذي تتحدث إليه هو زوجها، وأن من حقه أن يعترض بشدّة على أن تقيم أية صداقة مع الفنان الجذاب. قالت بصوت مرتجف:

- أخبرني بأنه يريد أن يرسم رسومًا تخطيطية لصورتي، فقلت له يجب أن يسألك أولا. أحكم «مارك» قبضته وضغط بها على رسغها، وبدأت الجهامة تزول تدريجيًا من وجهه وقال:

- أنا ممتن أنك ما زلت تتذكرين وجودي. لن أغضب منك، فأنت جديدة على أساليب معيشتنا، وتعتبرينها قيدًا على حريتك.

- أعتقد أن حبسي في البرج يعد قيدًا على حريتي.

- «لانونا» واحدة من أهالي «سردينيا»، ومن المحتمل أنها ظنت بأن ما تفعله

هو تأمين لسلامتك.

– «مارك».. هل من المعقول أن أعامل معاملة الطفل العاق لمجرد أنني تناولت السجق والجبن مع السيد «فابريزي»؟

– أنت لست طفلة في نظر جدّتي. أنت امرأة.. بل زوجتي..وأهل الجزيرة يعتبرون لقاء رجل بامرأة وحدهما إنما لغرض واحد، هو أن يمارسا الحب!

– «مارك».. هذا كلام غريب! في وطني يمكن للرجال والنساء أن يكونوا أصدقاء دون أن يكونوا عشاقًا.

– أنت الآن هنا في وطنك يا «رافينا»! اشتدت قبضة يده، واقترب منها وهو ينظر إلى عينيها مليًا، ورفع رأسها بيده الأخرى حتى تألق احمرار شعرها في ضوء الشمس الذي تسرب من خلال النافذة:

– هل لي أن أذكرك بأن من حقي أن أكون الرجل الوحيد الذي يحتل كل تفكيرك؟ هل جئت هنا لرؤية الصورة المعلقة على الجدران؟ وهل كانت تحدوك الرغبة في معرفة ما إذا كانت «دوناتا» أجمل.. وأدفأ.. وأكثر أنوثة منك؟ ثم أضاف:

– سأطلب من «فابريزي» أن يرسمك، عرفته في «روما» قبل أن يصبح مشهورًا في دنيا الفن. طبعًا أخبرك بأننا التقينا هناك.

– أجل يا «مارك». أنزلني من فوق ذراعيك. أشعر بدوار وأنا أنظر حولي دون أن أتعلق بسور الجسر.

– تعلقي بي، ضعي ذراعك حول عنقي أيتها الساحرة الباردة. ضحك «مارك» وترددت ضحكته في كبرياء، وهما يسيران فوق الجسر. إنه رجل قوي وقاس لا يلين مثل الأرض التي يمتلكها لا تستسلم بسهولة لليد التي تحرثها. وحتى هذه اللحظة كانت «رافينا» تحس بالخجل من أن تلمسه، وتمنت أن يدعها تقف على قدميها وهي تشعر بالاضطراب. رأت شخصًا يقف تحت المنزل ينظر إليهما فقالت:

– «مارك» انظر، السيد «فابريزي» يتطلع إلينا. كان «ستيليو» يلوّح لهما، وشعرت بنفسها تتحرر من ذراعيه وهي تقول:

– يجب عليّ أن أذهب لأغير ملابسي، وسوف أنضم إليكم. وأسرعت تعبر الجسر وتدلف إلى برج «الفارس»، وأحست بالراحة عندما وجدت نفسها وحيدة في غرفتها، وجذبت حبل الجرس لتستدعي الخادم، وسألته أن يحضر لها ماء ساخنًا، وتعجبت أن «مارك» لم يمد بيته بأنابيب المياه الساخنة، وسوف تتحدث معه في هذا الأمر، وأجفلت عندما امتد تفكيرها إلى نفسها كزوجة، وأن من حقه أن يملي عليها طلباته. عاد «مارك» إلى البيت، وفي هذه الليلة سيحاول أن يوقظها، ليس من أجل أن تستجيب لهذا الخدر الغريب الجامح الذي نسميه الحب، وإنما لتستجيب لهذا الجوع الذي يعربد في أعماقه وتكون ثمرته طفلاً جديدًا تلده له. أحضر الخادم الماء يتصاعد منه البخار. وعندما خرج نضت ثيابها وراء الستائر، وغسلت جسمها النحيل، وتخلصت من التراب، وأحاطت جسمها بفوطة، ثم سارت إلى خزانتها لتنتقي أحد الأثواب، لابد من أن «ستيليو» سيبقى ليحتسي شرابًا مع «مارك»، ويتبادلان الرأي حول موضوع الصورة، وتحديد موعد الجلسات التي تقف فيها أمام الفنان، كانت ترغب في أن تظهر على لوحة القماش في صورة أبهى من صورة «دوناتا» حتى تثير إعجاب الجميع بها. ابتسمت «رافينا» وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، فرأت ساقين طويلتين ونحيلتين، وقدمين بأصابع طفل، وذراعين لهما استدارة محببة، وخصلات شعرها الأحمر تنسدل مثل ذوائب اللهب فوق كتفيها الشاحبتين. سمعت صوتًا يأتيها من خلفها يقول:

– يا للأسف، إنني لا أسمح برسمك في مثل هذا الوضع الذي أراه الآن. سرت قشعريرة في أوصالها بينما كان «مارك» يعقد رباط عنقه عند باب الغرفة، فهو الشخص الوحيد الذي يحق له التطلع إليها وهي في غرفة نومها. قال لها:

www.rewity.com

– دعوت «فابريزي» لتناول طعام العشاء معنا. قالت:

– هذا شيء جميل. وأمسكت بثوب أصفر اللون، بكمين من الشيفون، وكان «مارك» قد اقترب من المرآة ليثبت رباط عنقه فسألها:

– هل تحبين احتساء الشراب في الشرفة المطلة على البحر؟ ثم تحول لمواجهتها، وأجفلت كعادتها من نظرة افتراسها التي تتلألأ في عينيه، ورسمت ابتسامة على شفتيها حتى تخفي إجفالها، وقالت له:

– وشيئًا لنأكله. إنني لا أستطيع أن أبقى دون أكل حتى موعد تناول العشاء. يكاد يغمى عليّ. ضاقت عيناه وهو يسألها:

– ألم تتناولي طعام الغداء؟ قالت وهي تضحك:

– أخبرتك بأن أحدهم أوصد الباب عليّ وأنا في البرج، ولم يكلف نفسه حتى تقديم كسرة من الخبز أو كوب من الماء. تقدم نحوها في خطوة حازمة، وقال:

– «رافينا»، أنا آسف لأن وجبة الغداء فاتتك، وهذه تجربة مثيرة للأعصاب، ولن تحدث ثانية. سوف أتحدث إلى جدتي بقسوة.. هزت «رافينا» يده وقالت:

– لا يا «مارك»، سوف يزيد ذلك من عداوتها لي إذا ما تحدثت معها بعنف. تجهم وهو يقول:

– عداوتها؟ هل تظنين الأمر كذلك؟ قالت «رافينا»:

– وماذا يكون الأمر غير ذلك؟ «دونا جوكاستا» كانت ترغب في أن تتزوج بفتاة من بنات «سردينيا» بدلا من أن تأتي بفتاة غريبة، ربما فطنت أن زواجنا يا «مارك» لا يقوم على الحب! حدق إلى وجهها. وارتفع حاجباه، فرأت فيه الرجل الذي أجبرها على الزواج دون أن يتفوه بكلمة رقيقة، وجذبت نفسها منه، وتحولت عنه لتأخذ ثوبًا وسألته:

– كيف عرفت أنني في البرج الآخر؟ قال:

– الستائر كانت مفتوحة. كان يجدر بك ألا تذهبي إلى هناك. الغرف كلها كئيبة. ويجب أن تظل مغلقة. سألقي نظرة إليها. وفي اللحظة التالية، غادر الغرفة بسرعة تاركًا «رافينا» وراءه لترتدي ثوبها، وتصفف شعرها في «شينيون»، وكانت فتحة الثوب تمتد ما بين كتفيها لتبرز نضارة بشرتها. وعظمتي الترقوة. وراحت تتأمل نفسها في المرآة، وقررت أن تزين صدرها بالصليب الذي أهداه إياها «مارك». تحولت «رافينا» عن المرآة، لأنها رأت نفسها في صورة فتاة أشبه منها بالمرأة الناضجة التي يبحث عنها «مارك» والأم التي تهبه الطفل الذي يتوق إلى رؤيته ليمحو من ذاكرته ذكرى الطفل الذي فقده بقسوة. أقبل «ستيليو»، وعلى شفتيه ابتسامة ثم قبل يد «رافينا» وقال لها:

– التقينا ثانية يا «مادونا» والسيد زوجك أذن لي برسم صورتك. ولا أستطيع الانتظار طويلا. حيا «ستيليو» «مارك» بابتسامة سريعة ثم قدم «مارك» مقعدًا إلى «رافينا» لتجلس عليه بالقرب من أزهار البرتقال التي كست جدار الشرفة، المطلة على الشاطئ قال الفنان:

– ليست السيدة موضوعًا يسهل إبرازه على اللوحة، ولكنني أستمتع بالتحدي. سأله «مارك»:

– لماذا لا تجدها موضوعًا سهلاً؟ ثم راح يتأمل مليًا ثوبها الأصفر، ويقارنه بلون نبتة البرتقال المرتعشة، وأشعة الشمس الحمراء التي تنعكس على شعرها ثم أردف يقول:

– يبدو لي أن زوجتي لديها الألوان التي تحوز إعجاب الفنان «تيتيان»؟ قال «ستيليو» مؤيدًا:

– تمامًا كما تقول. العينان تتغيران من زرقة البحر إلى لون أشجار الغابة الغامضة تبعًا لتغير مزاج صاحبتهما.

– أعدك بأن أظل في وضعي ساكنة كلما جلست أمامك يا سيد «ستيليو».

وشعرت بالخجل من الطريقة التي تناقش بها موضوع رسمها، وأحست بالارتياح عندما ظهر «رينزيو» حاملاً صينية عليها المشروبات والساندويتشات، وفي أعقابه يسير الظبي «بامبو» فأقبلت عليه «رافينا» بفرح شديد. قال «رينزيو» معتذرًا:

– ظن نفسه كلبًا كبيرًا يا سيدة «رافينا»، فاقتفى خطاي، هل أعود به إلى الإسطبل؟ ابتسمت «رافينا» وربتت أذني الظبي وقالت:

– دعه لي يا «رينزيو». إنه جذاب، أليس كذلك؟ قال «مارك»:

– لا يمكنك أن تتناولي الساندويتشات والظبي في حجرك. انظري، إنه يحك أنفه في شعرك. أشارت «رافينا» بأصبعها إلى الظبي تحذره قائلة:

– اهدأ. ثم التفتت إلى «مارك» وقالت:

– سيكون رائعًا، متألقا مثل الذهب. قدم «مارك» إليها طبقًا عليه الساندويتشات، ثم التفت إلى «ستيليو» وقال:

– هل تشرب كأسًا يا سيد «فابريزي»؟ قال «ستيليو» وهو يتقبل الكأس:

– شكرًا. ثم تطلع إلى «رافينا» والظبي وأردف يقول:

– وجدت الآن فكرة الصورة التي سأرسمها لك، بينما الظبي يقبع في حجرك أو ربما أدعه يبقى تحت قدميك.

– هذا إذا جلس فترة طويلة ساكنًا. ألا تشاركانني تناول الساندويتشات، إنها لذيذة؟ كان «مارك» غارقًا في مقعده ممسكًا كأسه، وهز رأسه بالرفض، بينما استند «ستيليو» بظهره إلى حائط الشرفة، والقلق يتراقص في عينيه، وتحدوه الرغبة لأن يبدأ العمل على قماش الرسم، ويقول لنفسه إنها فتاة جذابة كأية فتاة إيطالية. ولاحظ ضوء البحر وهو يبعث أشعته على الشرفة في هذه اللحظة من وقت الأصيل. قال:

– هل تأذن لي يا سيد «مارك» بأن أرسم الصورة هنا في الشرفة؟ أحس أن السماء والجبال تمثلان أروع خلفية لصورة «رافينا»! تطلع «مارك» بعينيه إلى

«رافينا» وقال:

– يعجبني ثوبك يا «رافينا». هل يمكنك ارتداؤه عند رسم صورتك؟

– كما تشاء يا «مارك». قال «ستيليو» مقترحًا:

– وشعرها مسترسل وقد تطاير قليلاً في مهب الريح. راحت «رافينا» تراقب الشمس وهي تحترق في الأفق، وبعد قليل اقترحت الدخول إلى البيت، فقد أحست بالبرودة تشيع في الجو. قال «ستيليو»:

– لا شك في أنك تعرضت لرياح الجبل بعدما غابت الشمس. قالت «رافينا»:

– هناك نار في مدفأة الصالون. حملت «رافينا» الظبي، وساروا جميعًا إلى الداخل، وكانت ترجو ألا تشاركهم «دونا جوكاستا» طعام العشاء، وتحققت أمنيتها، وأقبلت «بابتستا» وقدمت ورقة إلى «مارك» ثم غادرت المكان، قرأها بتجهم ثم ألقى بها في النار، وسأل «رافينا» وضيفه أن يسمحا له بالانصراف لعدّة دقائق. وخيّم الصمت على الصالون لمدة وجيزة، قطعه صوت تكسر الخشب المحترق في المدفأة. سألها «ستيليو»:

– كيف تسير أمورك مع «البادرونا» العجوز؟ نظرت إليه «رافينا» بتأمل وقالت:

– إنها لا تسير سيرًا طيبًا. أصيبت بخيبة أمل عندما تزوج «مارك» بأجنبية. أظن أنها كانت تحب «دوناتا» حبًا شديدًا، وهي دائمًا تعقد مقارنة بيني وبينها. قال «ستيليو» بهدوء:

– ليست هناك أية مقارنة. ركعت «رافينا» على ركبتيها فوق السجادة، ومدت يدها تلتمس الدفء من نار المدفأة وقالت:

– أعرف ذلك. كانت «دوناتا» جميلة، كما أنها كانت تتمتع بكل أسباب الكياسة. ساعدها «ستيليو» على الوقوف على قدميها وراح يتأملها على ضوء اللهب ثم قال لها:

– لكنك تتمتعين بجمال الروح يا «رافينا». ولديك جمال الجسم. قالت:

– «ستيليو».. وجذبت نفسها من يديه مذعورة. كانت تخشى من ظهور «مارك» المفاجئ. فيراها على مقربة من الفنان المليح الوجه. وأردفت تقول:

– أريد أن نكون أصدقاء. ومن المستحيل أن تتفوه بمثل هذه العبارات التي لا يحبها «مارك». قال بهمس:

– هل أتظاهر بعدم وجود أمس؟ فيه رأيتك أسعد حالاً من اليوم. هل تشعرين بالسعادة عندما يغيب زوجك عن البيت؟ وأحست أنه يطرق الحقيقة فقالت له:

– ليس من حقك أن تقول أشياء مثل هذه. لقد سألك «مارك» أن ترسم لي صورة لا أن تقوم بدور محلل نفساني لي.

– الفنان يتعلم قراءة لغة العيون. والعيون نافذة تطل على الروح. كم تمنيت أن تكون دروبنا قد التقت قبل أن يطرق «مارك» باب حياتك. أظن يا «مادونا» أننا – أنت وأنا – كنا سنعثر على الشيء الكثير الذي نستمتع به معًا. قالت بحزم:

– أعتقد أنك تجاوزت حدود كرم «مارك». أنا لست واحدة من زبائنك التي تستهويها مغازلة فنان مليح الوجه مثلك وأظن أنه من الأفضل أن تلغي جلساتنا. قال بهدوء:

– أظن أنك ستندمين.

– أندم؟ ماذا تقصد؟

– أعتقد أنك تحتاجين إلى صديق. ولم أفترض قط أنك تشبهين واحدة من النساء الأخريات اللواتي جلسن أمامي. إن سعادتهن تبلغ درجة عالية عندما يقوم «فابريزي» برسم صورة لهن. ومغازلتي لهن ترضي غرورهن. أما أنت فشخصية مختلفة تمامًا. أنا معجب بك. وأريد أن أرسم صورتك لأنك صورة للتحدي. وأدهش كثيرًا عندما أسائل نفسي: هل في وسعي أن أنقل

إلى القماش هذا السحر الذي أراه في عينيك. وجوهر الحزن الذي يشوبهما؟ وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وأنت شابة تعيش مع زوجها ويشارككما الحياة شبح امرأة أخرى؟ تطلع كل واحد منهما إلى الآخر وفجأة توهج لهيب النار وكشف لها الحقيقة واضحة. فحاولت «رافينا» أن تبدو مثل المضيفة الفخورة ببيتها. قالت له:

– هذه الغرفة جميلة. أليس كذلك؟ وراحا يتبادلان الرأي حول النقوش المرسومة على السقف. عندما رأت «مارك» يقبل عليها. وشاهدت مسحة من التجهم ترتسم على جبينه. وأدركت أن «دونا جوكاستا» بعثت الضيق في نفسه. ولكنه سرعان ما تخلص من مزاجه المنحرف. وبدا جذابًا وهم يتناولون الطعام. وحاول أن يذكّر «رافينا» كيف استطاع أن يجذب إليه «جاردي» عندما كانا يتناولان الطعام في «رافنهول». وراح يسرد عليهما قصصًا طريفة أشاعت في نفسها الضحك. وجعلتها تنسى ندوبه المخيفة. فبدا لها ساحرًا. أخذت «رافينا» تعبث بأصبعها فوق حافة الكأس. ولاح لها أن هذه الغرفة الكئيبة لم تشهد منذ فترة طويلة ضحكات مجلجلة. كما تشهد الآن «ستيليو» وهو يضحك بمرح. كان في ضحكه جذابًا. تتلألأ أسنانه وسط بشرته الإيطالية. وعليها أن تكون حريصة في الأيام المقبلة على ألا تظهر إعجابها للرجل الذي ستمضي معه في الشرفة أصيل كل يوم. استعد «ستيليو» للرحيل فقالت له «رافينا»:

– أحضر معك «تيو». سيفتقدك كثيرًا بحضورك وحدك هنا. وجه «ستيليو» حديثه إلى «مارك» قائلاً:

– زوجتك يا سيد «مارك» تتمتع بقلب حنون. إنها تفكر أيضًا في كلبي الصغير. سأحضره معي أحيانًا بعد إذنك. قال «مارك»:

– طبعًا. ثم وضع يده حول خصر «رافينا». وسقط نور مصابيح الباب عليهما. بينما كان «ستيليو» يستعد للجلوس وراء عجلة القيادة. فالتفت

إليهما وقال:

– وداعًا. كان الليل ينبض بالحياة، وبصوت محرك سيارته. لكن الصمت خيّم على الكون بعد رحيله. كان الليل ساكنًا إلا من همس خافت يجوب بين أشجار السرو، ووميض خفيف ينبعث من الزهور الغامضة التي تتبدل من اللون الأزرق إلى اللون الأبيض، عندما يرخي الليل سدوله. تمتم «مارك» قائلا:

– الزهور مثل أفكارنا، تتغير مع مجيء الليل. أنت صامتة يا «رافينا» وهذا يدعوني إلى الرغبة في معرفة أفكارك. قالت:

– أنا.. أنا أرجو أن تكون الأمور قد استقرت في المصنع.

– أجل.. انتهينا من موضوع الآلة الجديدة. بعض العمال يشكون من الآلات الحديثة. ألم أقل لك إن أهالي «سردينيا» يتمسكون دائمًا بالأساليب القديمة؟ أصاب «رافينا» التوتر عندما شعرت بيده تتلمس شعرها، فقالت:

– «مارك».. أرجو ألا يكون قد نشب جدال بينك وبين جدتك! أجابها ضاحكًا:

– هل تتصورين أننا لم نتبادل الكلمات من قبل؟ إننا نتميز بالعزيمة القوية، وبالطبع لابد من الجدال، كل منا مولع بالآخر، وسرعان ما ننسى، ونغفر. أخبرتها بأن السيد «فابريزي» سيأتي إلى هنا كل يوم ليقوم برسمك فاتهمتني بالحماقة وسألتني أن أعهد برسمك إلى فنان أقل شبابًا وجاذبية من «ستيليو». وبحركة سريعة، أدار جسم «رافينا» حتى واجهته، وأحاط خصرها بذراعيه وقال:

– إن شرف بيت الـ«سردي» يقوم على طريقة محافظته على زوجته. قالت:

– لم أجد مشقة في فهمك، لكن ماذا تفعل لو أنني خنتك.. هذا إذا اكتشفت الأمر بنفسك؟ وتلألأ نور المصباح في عينيه السوداوين وهما تتطلعان إلى

عينيها، ورأت في أغوارهما شيئا يخيفها، قال بهدوء:

– إذا تجاوز رجل حدوده معك فسأحطمه، سيفقد كل شيء ثمين لديه. تطلعت «رافينا» إلى وجه «مارك» ورأت نور المصباح يكشف الندوب الغائرة على صفحته والقسوة في كلماته، فتراجعت إلى الوراء، وأحست ببرودة تهز كيانها، وخضرة عينيها تخفق عبر رموشها. سألته:

– هل ندخل البيت؟ قال:

– أجل. دخلا البيت، وأوصد الباب الكبير وراءه، ثم أمسك بيدها وسارا عبر الصالة التي تؤدي إلى السلم، فأحست بيده دافئة وقوية وهما يرتقيان الدرجات. وتذكرت الليلة التي حملها فيها «مارك» إلى برج الفارس، والغضب يموج في أعماقه، أما هذه الليلة فإن مزاجه يبدو أرق وهو ممسك بيدها، كأنه يخشى من أن تهرب منه.

- 6 -

وعد «مارك» «رافينا» أن يقدم إليها جوادًا يكون ملكًا لها تمتطيه وقتما تشاء، واختار لها مهرًا أغبر، أبوه ذو فحولة يركض بجنون عبر تلال «سردينيا». وكان المهر رقيقًا. استطاع أن يربط أواصر الصداقة بينه وبين «رافينا». وكان «أدونيس» الأسود هو الجواد المفضل عند «مارك». وذات صباح هبطت «رافينا» إلى الإسطبلات لتلهو مع المهر، وعلمت من صبي السائس أن «أدونيس» قد ألقى بصاحبه السابق أرضًا، ووطأه بحوافره. قال الصبي موضحًا:

– «أدونيس» يحب ألا يضربه أحد بالسوط، و«مارك» لا يحمل أي سوط، ولهذا كان الجواد أليفًا معه. وقفت «رافينا» على باب حظيرة «أدونيس»، تحمل قطعة من السكر في راحتها، وأشاح الجواد بأنفة، ورفض أن يقبل

الرشوة من شخص ما زال غريبًا عنه. ضحكت «رافينا» وقالت:

– أيها الشيطان المتكبر، أشد ما أتساءل أي شخص تريد أن يمتطيك؟ عندما كانت «رافينا» قاصرًا تعيش تحت وصاية واحد من الفرسان. كانت تستمتع بركوب الخيل وهي ما زالت شابة، تعلمته –هي و«رودري»– حتى أتقنته. وأصبحت الآن تمسك بمقود الجواد وتقوده وهي ثابتة الجنان فوق السرج فاستحقت أن تكون فارسة ممتازة. ونالت إعجاب «مارك» عندما رآها تمتطي برشاقة فوهبها المهر كدليل على تقديره لطريقتها في ركوب الخيل، وأدركت أن زوجها السرديني لا يعبر عن إطرائه بالكلمات وإنما هو رجل عملي. وبينما هي واقفة تتأمل «أدونيس» بإعجاب تناهى إلى سمعها وقع حذاء يعبر فناء الإسطبل، وقميصًا أبيض اللون جعله يبدو أكثر شبابًا ورياضيًّا في لباس الفرسان. وفي الحقيقة لم تعرف «رافينا» رجلاً سليم البنيان دؤوبًا مثل زوجها. فهو يمضي ساعات طويلة يتفقد أعماله، ويعكف في مكتبه على دراسة أوراقه المهمة حتى ساعة متأخرة، كما أنه يعمل على إنجاز شؤونه المحلية بنشاط ملحوظ. ابتسمت وهي تشعر بالخجل يعتصر قلبها، ثم قالت:

– صباح الخير.. أحاول أن أكسب صداقة «أدونيس»، ولكنه يبدو خجلا مني.

– أرجو ألا تكوني حاولت دخول حظيرته، لقد أسيئت معاملته مرة، فأصبح يشك في أغلب الناس. قالت:

– أكره التفكير في أن يكون أحد قد آلم مثل هذا الحيوان المتكبر. ارتسمت ابتسامة على شفتي «مارك» وهو يدلف إلى حظيرة «أدونيس»، فناولته «رافينا» السكر الذي التهمه الجواد وهو يدفع عنقه في كتف «مارك»، ثم وضع السرج على متنه، واللجام في فمه. وأدركت تمامًا مدى التفاهم بينهما. إنهما يقتسمان ألم الذكرى السوداء ويشتركان في الخطر الداهم الذي يتعرض له المرء إذا ما راودته فكرة الاقتراب منهما. ثم سمعت وقع حوافر مهرها على أرض

الإسطبل، بعد خروجه من حظيرته، وقد أعد السرج على ظهره استعدادا لرياضة الصباح، فأسرعت إلى امتطائه، وتألقت شمس الشروق فوق شعرها الذهبي، وسرح المهر الذي انتصبت أذناه، واهتز لجامه، وكأنه يقول لراكبته «هيّا بنا.. دعينا ننطلق». استدارت لترى ما إذا كان «مارك» امتطى جواده، فتبينت أنه استقر فوق ظهر الحصان، وأرخى حافة القبعة فوق وجهه الأسمر، وغادرا فناء الإسطبل وانطلقا إلى رحاب الريف، وأحست «رافينا» بالحرية وهي تركض بجوادها عبر الأرض الشاسعة، رغم وجود «مارك» إلى جوارها. كان هناك سحر يكسو الكون: في رائحة العشب، وقطرات الندى التي تتألق فوق عيدان الحشائش، وسيقان الأشجار الشوكية، وبعد قليل سوف تستنزف الشمس بيد حانية الألوان من الحشائش والزهور البرية. كان قلب «رافينا» يشدو بأغنية غريبة، نصفها مرح، ونصفها الآخر دهشة، إذ أحست أنها قريبة من دنيا السعادة، وخيل إليها أن الريح تلهب سياطها فوق شعرها، فانطلقت بجوادها تسابق «مارك» على أرضه التي يعرف فيها كل شبر، وكل شجرة زيتون. وسألت نفسها: هل تريد الهروب منه؟ والتفتت تنظر إليه، فرأت ابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء وسط وجهه الأسمر، وقد كبح جواده عن المضي في الجري، تاركًا إياها تعتقد أن في وسعها الهرب منه، واندفعت قبعته لتسقط وراء رقبته فبدا لها في صورة قاطع طريق يتعقب خطاها، وتولتها رعدة من الخوف سرت في أوصالها، رعدة دفعتها إلى أن تحث مهرها على الإسراع وتشبثت ركبتاها بالسرج، وهو يتخذ طريقه إلى غابة الصنوبر الكثيفة، وعندما تناهى إلى سمعها صوت الحصى وهو يتناثر تحت وطأة حوافر «أدونيس»، كان المهر قد بلغ الممر الطحلبي المؤدي إلى داخل الغابة، ثم شمت رائحة الراتنج الصمغية المنبعثة من الأشجار، ويبدو أنها خدرتها هي ومهرها. وحينما بلغت «رافينا» موقع جدول يتدفق فيه الماء عبر الغابة توقف المهر فجأة، فاهتز جسمها فوق السرج وانتابها دوار،

www.rewity.com

وتقطعت أنفاسها، ولفتها ظلال أشجار الصنوبر ونظرت حولها فرأت «مارك» في محاذاتها. قالت لاهثة:

– هذا.. هذا الماء، أهو صالح للشرب يا «مارك»؟ قال:

– إنه يتدفق من الجبال.. عذبًا.. صافيًا. رمقته بنظرة سريعة، ثم انزلقت بجسمها من فوق السرج، وأسرعت تركع فوق ضفة الجدول، واستخدمت راحتيها لتنهل بهما الماء، وكان باردًا كأنه مثلج، وطفقت تستعذبه وهو يجري لذيذا عبر حلقها. سألت «مارك» وهو يترجل من فوق حصانه ويسند ظهره إلى شجرة صنوبر:

– ألا تشعر بالظمإ؟ قال:

– في وسعي أن أحتسي قليلا من القهوة. وشعرت بأنه يتطلع إليها وهي جالسة على حافة الجدول تجفف يديها، ثم أردف يقول:

– أتحبين الذهاب إلى مطعم صغير أعرفه حيث نتناول طعام الإفطار؟ إنهم يصطادون السردين مباشرة من البحر، ويعدونه مشويًا أو محشوًا بالخضرة. قالت:

– أنا جائعة. إن ركوب الخيل يفتح شهيتي.

– أنت تحبين ركوب الخيل.. أليس كذلك يا «رافينا»؟ قالت:

– لم أمتط جوادًا رائعًا مثل هذا المهر.ورمقت المهر بشغف، ثم أردفت تقول:

– أحب رائحة الصنوبر، إنها نقية منعشة طلقة مثل ركوب الخيل السريع عبر الريح والماء البارد، وكل شيء له لذعة قارصة. وتطلعت إلى «مارك» ورأت لمعان أسنانه وعلى شفتيه ابتسامة، وأدركت أنهما وحدهما. إنه زوجها ومع ذلك هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يدغدغ أعصابها، وقد بدا جسمه واضحًا لها. إنه عريض المنكبين، وتتراقص الرغبة تحت قميصه الأبيض، وأطرافه طويلة، وأضاف حذاؤه الذي يصل إلى ركبتيه سمة القوة إلى هيئته،

وكان لابد لها من أن تمر بجواره كي تصل إلى مهرها، فأخذ قلبها يدق وهي تنهض واقفة واتخذت سبيلها نحوه. مدّ يده في تراخ، وجذبها نحوه، ونفذت يده الأخرى في أغوار شعرها المتطاير. وفجأة اشتدت قبضته عليها وهو يتحدث إليها:

– قبلتك تبدو وكأن الثلج يسري في عروقك، بينما تبدو النار في نظرة عينيك. ما من مرة يا «رافينا» في خلال الأسابيع التي أمضيناها سويًا شعرت بالدفء في قبلتك. قالت والبرودة تشوب نبرة صوتها:

– منحتك كل ما يمكن أن أعطيك إياه. إذا كنت تريد الحب يا «مارك» كان الأحرى بك ألا تجبرني على الزواج بك. سألها وفي صوته نبرة سخرية:

– هل كنت تصيخين السمع لي لو غازلتك بالطريقة التقليدية؟ ماذا كان تفكيرك عندما التقينا لأول مرّة؟ أحست بنبضات قلبها تخفق قريبًا من قلبه، وأدركت أنه يشعر بهذه الدقات المجنونة حينما قالت له:

– كنت أرجو أن تذهب بلا عودة. لمس وجهها وراح يتحسس العظام الرقيقة أسفل بشرتها الناعمة وسألها:

– كأن الشيطان قام بزيارتك، أليس كذلك؟ هل كنت أبدو شيطانا أمامك يا «رافينا»؟ هل بعثت الشقاء في نفسك؟ منذ لحظة وجيزة كانت عيناك تتألقان. قالت:

– أنا.. أنا أحب أن أمتطي مهري. من الأفضل أن تعطيني جوادًا أستطيع أن أمتطيه جيدًا.

– لا بد من أنك تعلمت ركوب الخيل منذ طفولتك.

– أجل.. «جاردي» كان دائمًا يعاملني وكأنني ابنته، وما تعلمه «رودري» لم يكن ضنينًا عليّ به. ذهبنا سويًا إلى مدرسة تعلم ركوب الخيل.

– هل عشتما مع بعضكما البعض فترة؟ وتطلعت إليه، ولمحت القسوة في عينيه، وقالت له:

www.rewity.com مـــرمـــوريـــتي

– كما أخبرتك من قبل يا «مارك»، إنني لا أستطيع أن أمحو ذكرى «رودري» من عقلي. كما عرفته كان مرحًا، أنيقًا في زيه العسكري، وجذابًا.

– جذابًا؟ هيّا بنا ودعينا نتناول طعام الإفطار. وقاما بامتطاء الجوادين، وقفلا عائدين من غابة الصنوبر. وكانت الشمس دافئة وهما يمضيان في الممر المؤدي إلى الفندق الصغير القائم فوق التل المطل على الشاطئ. وكانت جدرانه الخشبية بيضاء، وسطحه منحدرًا قليلاً. وله حديقة تناثرت فيها أشجار الكروم والجميز، وشجرة توت كبيرة صفت الموائد تحت أغصانها. قادهما شاب خجول إلى إحدى الموائد، وكان يتحدث بإنجليزية مكسرة، سريع الحركة، أطاح بالملاّحة وهو يفرد الفوطة ويضعها على حجر «رافينا» وقال:

– أجل.. أجل يا سيدي.. سيأتي السردين طازجا من البحر مباشرة. وظهرت في الحديقة شابة حافية القدمين، ترتدي ثوبًا قرمزي اللون، وتحمل فوق كتفها سلة مملوءة بالسمك، منحت «مارك» ابتسامة سريعة، ورمقت «رافينا» بفضول ثم قالت:

– صباح الخير يا سيدي، هل أتيت لتتناول السردين المشوي كما كنت تفعل في الأيام الخوالي؟

– أجل يا «سانتوزا». أحضرت زوجتي لتأكل ألذ طعام إفطار موجود في كل «سردينيا». قالت «سانتوزا»:

– لطف منك أن تقول لي ذلك يا سيدي. ومنحته الشابة انحناءة احترام، وأدهش «رافينا» جرأتها ونظراتها الضاحكة وقد أضافت بلوزتها الزرقاء وتنورتها القرمزية الحيوية لشبابها، كما لاحظت أنها تنظر إلى «مارك» وكأن بينهما صداقة قديمة. حملت «سانتوزا» السلة إلى الفندق، وطلب «مارك» كوبين من اللبن (الحليب) ليحتسياه حتى الانتهاء من طهي السمك، وأتت سيدة عجوز بالكوبين، وكانت ترتدي وشاحًا أسود اللون فوق رأسها شأنها في ذلك شأن كل جيلها المسن. قالت بالإنجليزية:

– أتذكر يا سيدي عندما كنت تحضر معك ابنك، هذا الصقر الصغير الشقي ليحتسي لبننا... ثم أضافت قائلة بالإيطالية:

– «كوزي إيستا لافيتا». ثم طفقت تجوب بنظراتها لتتأمل «رافينا»، فأدهشها لون شعرها الأحمر وبشرتها البيضاء، وأردفت تقول بالإنجليزية:

– إنها قطعة رائعة الجمال. لابد من أنها تدير رأس أي رجل، لكن من الأفضل أن تقترن بواحدة منا. وراحت تتمتم وهي تغادر المكان، وتركت وراءها «رافينا» مشدوهة، وسألت «مارك»:

– إنها تعني.. هكذا هي الحياة! وكأن الكلمات التي تفوهت بها العجوز أعادت الزمن القهقري، وتذكر «مارك» بوضوح عدد المرات التي جاء فيها إلى الفندق بصحبة فتاته ذات الشعر الأسود لتتناول معه طعام الإفطار، وبعد مدة كان يأتي معهما ابنهما الصغير.. الصقر الصغير الشقي. احتست «رافينا» رشفة من اللبن (الحليب)، وراحت تبحث عن شيء تقوله، أوه، لماذا أتى «مارك» بها إلى هنا؟ لماذا...؟ وهذا المكان يحمل ظلالا من الذكريات، وقد يحدث أن يسمع ضحكات طفل توارى وراء أشجار الكروم والجميز. قالت:

– «مارك»... ولكنه قاطعها قائلا:

– كل شيء على ما يرام يا «رافينا». أشكرك على تلك النظرة التي تجول في عينيك.. الشفقة من أجل الطفل. كان يحلو له المجيء إلى هنا، والاختباء وراء الأشجار، ورش الماء من النافورة العتيقة، لكن الذكريات لا يمكن محوها كما تقولين، كما أنه لا يمكن الاختباء منها. ها هي «ناتالينا» تأتي بالسردين. أقبلت «رافينا» على الطعام بشهية، وهي تقول:

– لم أذق في حياتي مثل هذا السردين اللذيذ، والخبز ما زال دافئًا خرج لتوه من الفرن، والزبدة تسيح من شريحته. قال «مارك»:

– يبدو منظرك كالتلميذة الجائعة. حقًا، كانت «رافينا» بشعرها المتطاير، وقميصها المفتوح وهي ممسكة بقطعة الخبز المدهون بالزبدة، لا تكاد تبدو أنها

زوجة، ولا يؤكد زواجها شيء سوى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى. وأدركت أن «مارك» يعقد مقارنة بينها وبين «دوناتا». لابد من أنها كانت هادئة وفاتنة ورشيقة، وكان شعرها الأسود ناعمًا، وعيناها على استعداد لأن تهبه ابتسامة خلابة، وصوتها الناعم فيه سحر وإغراء. مسحت «رافينا» شفتيها، ولا ريب في أنها كتمت الصرخة التي ندت من قلبها. لقد عرف «مارك» الحب، ولكنه حرمها الفرحة المتعة لهذه العاطفة. كل ما لديه هو الرغبة فقط. سألها:

– ماذا تريدين الآن أيتها العروس؟ هل ترغبين في مشاركتي تناول فاكهة «بيرسيفون»؟ راحت تراقبه وهو يقطع الفاكهة مناصفة ورأت العصير يجري فوق يده التي كستها الندوب، وأردف يسألها:

– هل تعرفين أسطورة «بيرسيفون»؟ التهمت «رافينا» قطعة من الفاكهة اللذيذة وقالت:

– التقى بها «أدونيس» مصادفة وهي تقطف الزهور، وحملها معه إلى قصره. هل تسمح لي بعد مضي ستة أشهر أن أعود إلى عالمي.. مرة أخرى؟ تطلع إليها «مارك» وقال:

– إذا كنت ترغبين في رؤية «جاردي» لن أقف دونك! أما إذا كنت ترغبين في رؤية «رودري» الجذاب فهذا شيء آخر!

– أرجوك.. هل من المحتم أن يدور حديثنا عنه؟ قفزت «رافينا» واقفة على قدميها، وطفقت تتجول بين أشجار الجميز والكروم. وكانت عناقيد العنب صغيرة ومرة، وعثرت على عريشة تظلل مقعدًا صغيرًا من الحديد. جلست عليه، وأخذت أصابعها تلوي بعنف منديلها، ولم ترفع رأسها حينما أظلم المدخل بجسم «مارك» الفارع. قال:

– يجب أن نعود إلى البيت. وتذكرت بيتها في وطنها. وتواردت الصور على عقلها عندما فكرت في العودة إلى بيتها، إلى غرفتها في «رافنهول»، بنافذتها

الدائرية، وشرفتها الممتدة، وكتبها، وخلوتها التي تطمئن إليها في أحضان الجدران البيضاء. قال لها:

– تعالي. وشعرت بأنها وقعت في شرك، ولا سبيل لها للخروج من العريشة إلا الوقوع في أحضانه، فصرخت قائلة:

– أكرهك، لن أشعر بشيء سوى الكراهية نحوك، ونحو القلعة، والريح التي تهز أشجار السرو. إنها تبكي في الليل، لا شيء سوى النحيب في «الكازا تشيبريسو»! هل شعر هذا البيت يومًا بالسعادة؟ قال لها:

– ما زلت صغيرة. وجذبها نحوه، ولما حاولت أن تنفلت هاربة من بين يديه، شعرت بقوته تجذبها ثانية، فقالت له:

– أنت تحب أن تثبت لي أنني لا أستطيع الفرار منك. هذا ما تحبه.. أليس كذلك؟ ضحك بمرح وجذب وجهها نحوه وتمتم قائلا لها:

– عيناك خضراوان.. وثائرتان.. أشاحت بوجهها وهي تقول:

– لا تفعل... وكانت تدرك أنه يحاول تقبيلها، فضحك ثانية، وجرت يده التي تكسوها الندوب على طول شعرها الأحمر وقال:

– هيّا بنا نعود. وصل «ستيليو» عقب الغداء ليواصل رسم صورة «رافينا»، ولكنه بعد مضي ساعة ألقى بفرشاته، وخطا تجاه المائدة، ليحتسي كوبًا من عصير الأناناس المثلج الذي يحبه، ثم قال بتجهم:

– إنني أتحدى يدي اليوم. هل ترغبين في كوب من العصير؟ هزت رأسها وهي تسترخي على سور الشرفة، وقد تبين لهما أن الظبي لن يظل هادئًا أثناء الرسم؛ لذلك فضل «ستيليو» أن يرسمها وحدها بجوار السور، وساعده ذلك على مواصلة عمله. ألقى إليها نظرة فاحصة طويلة وسألها:

– ماذا يزعجك؟ غدوت غريبة على الابتسامة. إنني أصر على أن ترتسم ابتسامة «الموناليزا» على شفتيك وأنا أرسم صورتك. قالت:

– المرء لا يستطيع دائمًا الابتسام. إنني.. إنني أشكو من صداع خفيف. سار

نحوها بقميصه الأزرق الشاحب، وتطلع إليها بعينين تتلألأ فيهما أضواء كهرمانية اللون، وسألها:

– هل حقًا أنت صادقة معي؟ ربما يكون قلبك يسبب لك ألمًا. أجفلت «رافينا» لنفاذ بصيرته، ورأت أن عليها أن تكون حريصة مع «ستيليو»، فهو شخص جذاب، وعطوف. وفي هذه اللحظة أحست أنها تحتاج إلى قليل من هذا الحنان، وإلى كتف تريح رأسها عليها، لمجرد لحظات قليلة. ولم تحتمل نظرات الغواية التي تلألأت في عينيه، فأشاحت بوجهها بعيدًا عنه، وشخصت ببصرها نحو الجبال ومياه البحر التي تجري تحت البيت، وكانت تنبض مثل نبض قلبها في موجات متتالية. وكان الجو مشبعًا بالحرارة، وكأن عاصفة تنذر بالقدوم، قالت:

– الجو ثقيل ويدفعني إلى القلق. اقترب «ستيليو» منها وقال:

– إنها الرياح الشرقية الحارة التي تهب من «إفريقيا»، وهي تثير أعصاب أي شخص غريب. قالت بحدة:

– كفى.. يا «ستيليو».

– أريد أن أقول إنها أثارت أعصابنا في خلال الساعة الماضية. أنت تعيسة يا «رافينا» وأنا أعرف السبب. ورسمت ابتسامة على شفتيها وهي تنظر إليه.. ثم قالت:

– لا تستطيع أن تعرف السبب بسهولة. أرجوك يا «ستيليو»، اصحبني في جولة بالسيارة. قال والأضواء الكهرمانية تحترق في عينيه:

– على الرحب والسعة. لكن ماذا عن زوجك؟

– إن «مارك» في اجتماع مع صانعي الشراب، ولن يعود قبل ساعات. وأنا أريد أن أشعر بالريح تلفح وجهي. قال:

– إذن، هيّا بنا. أمسك «ستيليو» بيدها، ومثل أطفال المدارس انطلقا يهبطان درجات السلم ويخترقان الصالة، ويغادران باب البيت، ولم يلحظ أحدهما

السيدة ذات الرداء الأسود وهي تتلصص عليهما، واقفة في الرواق، بنظرات تومض ومضًا سريعًا، ثم هرعت لتفضي إلى سيدتها بأن «البادرونسيتا» انطلقت تجري من البيت يحدوها مرح القُبَّرَة، وهي ممسكة بيد الرسام الإيطالي. وكان لون سيارته اللوتس رماديًا... وأخذت تسابق الريح عبر الطرقات التي تخترق الجبل، وفي كل منحنى كانت «رافينا» تمسك أنفاسها، وتشعر بأنها تطير في الهواء، ولن تفكر في ركوبها مرّة ثانية، أما الآن فهي ترغب في أن تمتع نفسها، وكان «ستيليو» يهلل كلما لفحته نسمات الهواء، ويقول لها:

– إنها منعشة، أليس كذلك؟ ضحكت قائلة:

– إنها رائعة.. من الأفضل لك أن تكون سائقًا لسيارات السباق. قذفها بابتسامة سريعة، وقال:

– إن الريح تلسع شعرك بالسياط. ما رأيك يا «رافينا» في أن نتوجه إلى الساحل..

– لا.. لا.. إنه بعيد.

– ليست المسافة بعيدة وأنت تركبين لوتس. في وسعي أن أقدم إليك شرابًا مثلجًا في مسكني، وسأعود بك في الساعة السادسة، هل أنت خائفة؟ قالت ساخرة:

– منك..؟

– لا.. وإنما من زوجك. ويبدو أن شيئًا اعتصر قلبها، ودفعها الشعور بالخوف من «مارك» إلى التمرد فقالت بلا اكتراث:

– يمكنك أن تقدم إليّ شرابًا باردًا. انتظر... دعني أفكر ثانية. قاطعها ضاحكًا:

– أفلت الأمر من يديك. لقد بلغنا الطريق المؤدي إلى الساحل!

– كنت أود أن أقول لك إنني أفضل احتساء عصير البرتقال. وأخذت السيارة تطوي الطريق الناعم المحاذي للشاطئ، وانقضت فترة قبل أن يرخي الخوف

أصابعه التي أنشبت أظافرها بصدر «رافينا». كانت تدرك أنها ترتكب جرمًا تجاه «مارك»، وقررت أن تخفي عنه زيارتها لفيلا «ستيليو». ما يجهله «مارك» لا يتسبب في قلقه. أخيرًا وقفت السيارة أمام فيلا رائعة الجمال، تقع في ميدان يضم عددًا من المنازل الفاخرة، ورأت سلمًا أبيض اللون عربي التصميم يؤدي إلى الشرفة. كان المنزل يبعث على الشعور بالبهجة، والمكان يناسب حقًا فنانًا غير متأهل. وضع «ستيليو» مرفقه على عجلة القيادة وسألها:

– حسنًا.. هل تدخلين الفيلا؟ قالت:

– كيف لي أن أقاوم؟ وانزلقت تغادر السيارة، واستدار هو من الجانب الآخر، لينضم إليها، وارتقيا السلم المؤدي إلى الشرفة، وفتح الباب، ودخلا غرفة واسعة وباردة مليئة، بها أريكة هلالية الشكل مكسوة بالقطيفة، وبعض الزخارف النحاسية، ودولاب للشراب فارسي التصميم، ولوحات إيطالية تزين الجدران، وولاعة على شكل بجعة فوق منضدة صغيرة. قالت «رافينا» بابتسامة:

– أنت مترف. نظر إليها بجسارة وقال:

– كنت شابًا محرومًا. ذقت الفقر والحرمان في مطلع حياتي. اجلسي من فضلك، وسوف أسكب لك شيئًا. قالت بخفة:

– أريد أن أحتسي عصير البرتقال. ثم جلست في أحد المقاعد الوثيرة، وامتزج لون فستانها الأصفر بلون قماش القطيفة البرتقالي الذي يكسو المقاعد، ووضعت يدها على شعرها لتسوية خصلاته، وألقى «ستيليو» نظرة إليها قبل أن يتوجه إلى دولاب الشراب وفتح أحد مصراعيه، وقال:

– لم يعد عندي عصير البرتقال.. ألا تثقين بي؟ قالت:

– أفضل أن أحتسي مقوّيًا ممزوجًا بالثلج. تطلعت إلى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى، ثم تفرست في «ستيليو» وسألته:

– هل تعيش وحدك هنا يا «ستيليو»؟

– أجل.. ألا تشعرين بالأسف لي؟ هناك سيدة تأتي لتنظيف البيت وتلميعه وتقوم بطهي الطعام إذا دعوت بعض الضيوف، ولكنني اعتدت أن أتناول عشائي في المطعم. قدم إليها الشراب الممزوج بالمقوي في كأس على شكل زهرة التيولب، ثم سألته:

– دائمًا وحدك؟ جلس على الأريكة الهلالية الشكل، ومد ساقيه حتى تقاطعا، ورفع كأسه بيده وقال لها:

– في صحتك! إن الرجل يعتاد الوحدة، لكن يوجد علاج واحد لها. على أي حال هل أبدو لك أنني من النوع الذي يستطيع أن يعيش حياة الرهبان؟ ابتسمت وهزت رأسها وقالت:

– كنت دائمًا أعتقد بأن الإيطاليين يتزوجون في سن مبكرة ليكون لديهم عائلات كبيرة. قال:

– لكل قاعدة شواذ. خذي نفسك مثلاً. أنت فتاة جميلة.. وتتزوج ضد رغبتها. تجمدت الابتسامة على شفتيها وقالت:

– ما جئت إلى هنا لنتحدث عن زواجي وإنما أتيت.. قاطعها قائلا:

– لتنسيه لفترة. لا داعي للتظاهر معي. رأيتك على حقيقتك وأنا أقوم برسم صورتك، وكيف يبدو شكلك عندما ينضم «مارك دي كورزيو» إلينا ونحن في الشرفة في «الكازا»، كأن الضوء يهرب من عينيك، وكأنك تتخلين عن نفسك. وضعت كأسها على المنضدة، وقفزت واقفة على قدميها، وقالت:

– كفى، ما جئت إلى هنا لتقوم بتحليل زواجي، أو مشاعري الشخصية ليس هذا من شأنك. قال:

– هل تظنين ذلك؟ ثم وقف بدوره ورأت سمة الجدية في نظراته، ثم أردف يقول:

– التقينا على الشاطئ، وكنت جذابة، والتقيت بك ثانية في بيت

www.rewity.com

«دي كورزيو» ورأيت فيك فتاة تختلف تمامًا عن تلك الفتاة التي توجهت معي إلى الكهف. في كل يوم منذ التقينا وأنا أحاول أن أنقل الأضواء الضاحكة التي تتلألأ في عينيك إلى اللوحة لكن هذا مستحيل! إنها لم تعد هناك، شيء غامض يحاول أن يقمعها! وتجرع بقية الشراب ثم استطرد يقول:

– سيدتي، هل تتصورين أنني أحمق؟ هل تظنين أن خبرتي في هذه الدنيا قليلة فلا أدرك حقيقة المرأة التعسة عندما يقع بصري عليها؟

– وهل تظن أنني جئت إلى هنا لتقدم إليَّ العزاء؟ وهل هذا هو الأسلوب الذي يستجيب به زبائنك التعساء إلى سحرك؟ قال لها:

– لكنك صرحت لي بأنك تعسة؟ وقام ليتناول سيجارة، ثم توجه ليغلق الأبواب الزجاجية التي كانت تسمح بدخول نسمة حارة جعلت «رافينا» تلهث أنفاسها، ولما عاد وقف إلى جوار كتفها، شعرت بالتوتر، ولم يكن سبب توترها خوفها من دافع غريزي منه، وإنما كانت تشعر بنوع من الود يضيفه عليها، والحنان يعتبر أخطر عاطفة عندما تكون المرأة تحتاج إليه. قالت:

– كل شيء يسوده الهدوء حتى جمع الحصاد هدأ، والأشجار نسجت خيوطها بزرقة السماء الحارة. تمتم قائلا:

– كم أحب سماع بلاغة وصفك. لديك سمة تصيب المرء بالهوس لم أجدها من قبل في أية امرأة أخرى.

– هل عرفت نساء كثيرات يا «ستيليو»؟

– أنا في الثانية والثلاثين من عمري، وفنان له مكانته، لابد من أن يتعرف إلى الناس.

– أنا آسفة أنك تلقى المتاعب بسبب صورتي، وربما تنفض يديك منها قريبًا.

– يجب أن أتخلى عنك لأتخلى عن الرسم. لقد فتنت بجمالك يا «رافينا».

أرجوك لا تغادري المكان. إنني لن ألمسك، ولا أجبرك على أن تشاركيني مشاعري. أنا أعرف أنك فتاة وفية لزوجك حتى لو لم تشعري بالحب نحوه. ذات يوم.. ربما.. سوف تفضين إليَّ بسبب زواجك به. تولتها رعدة خفيفة. ربما كان السبب زمجرة الريح، أو وميضًا في السماء دفعها إلى أن تتراجع عن النوافذ، وجعلها تقترب من «ستيليو» ليصطدما برفق. أغمضت عينيها واندفعت ذكرى «جاردي» إلى عقلها. كان رقيقًا، وحانيًا عليها، واعتاد أن يقبلها في وجنتها حين عودتها من المدرسة. طفرت الدموع من عينيها، وانسابت على وجنتيها، بينما كانت السحب تبرق خارجًا، وهدير المطر يتدفق من عنان السماء، ويتطاير رذاذ منه على زجاج الأبواب المفتوحة، فسحبها بعيدًا، وأظلمت الغرفة، وبدا الهواء يهب بعنف. مسحت «رافينا» وجنتيها المبتلتين، وفتحت عينيها لتشاهد العاصفة، وقالت:

– ما كان يجدر بي أن آتي إلى هنا. إلى متى سيدوم هطول المطر. أرغب في العودة إلى البيت يا «ستيليو». فنظر إليها مأخوذًا وقال:

– لا أستطيع أن أعود بك في مثل هذا الجو، أنتِ لا تعرفين كم هي سيئة طرق الجبل حينما يكسوها المطر، اهدئي وكوني ظريفة. إن المطر المنهمر لا يدوم طويلاً، وسأعود بك بأسرع ما يمكن. راحت «رافينا» تقطع الغرفة جيئة وذهابًا، وهي تسائل نفسها: لماذا وافقت على المجيء معه؟ أدركت أنها أخطأت ووقعت في شراك العاصفة، ويبدو أن غضب المطر لن يتوقف. قال لها:

– اجلسي. وسكب لها شرابًا طازجًا، احتسته، وشعرت برأسها يسبح بخفة، والحرارة تدب في أوصالها، وزاد وجيب قلبها. كانت خائفة على نفسها وعلى «ستيليو». قالت:

– «مارك» سيغضب. إنني لن أخبره بمجيئي معك إلى هنا. مال «ستيليو» نحوها وقال:

– ماذا في وسعه أن يفعل؟ علام يغضب إذا علم بالحقيقة.. بأننا شربنا.. بأننا تحدثنا.. بأننا أصدقاء.

– من الصعب تعليل هذا التصرف.

– حاولي يا «رافينا».. دعيني أفهم السبب الذي يدفع فتاة مثلك إلى أن تعيش في خوف من رجل. من واجبه أن يشعر بالحب نحوك، وأن يرغب في إسعادك. حاولت أن تبتسم لكن محاولتها باءت بالفشل. سألها «ستيليو»:

– ألا تخطئين فتتصورين الحب.. جاذبية. قالت متسائلة:

– حب؟ وحدقت إلى المطر المنهمر، كأنه سياط تلهب أرضية الشرفة، فسارع «ستيليو» إلى غلق الأبواب الزجاجية، فتوقف تيار الهواء. قالت «رافينا» في هدوء:

– عندما يوجه القدر حياتك بقسوة، يتوقف إيمانك بالحب. لم يطلب «مارك» مني حبي مطلقًا ولم يسألني الزواج به إلا امتثالا لأسلوبه معي. أمسك «ستيليو» بيدها اليسرى، وتحسس خاتم زفافها، وقال:

– لماذا؟ ألأنك شعرت بالشفقة نحوه؟ ألأنك لا تحتملين أن تكوني سببًا في إيلام رجل سبق أن لحق به أذى؟ «رافينا» إن زواجك به يعد تضحية! بدا وجهها في ضوء العاصفة مستغرقًا في التفكير وعيناها مثل البرك الموحلة بالطين. أجل إنها تضحية، ولا يمكن إنكار هذه الحقيقة، ومع هذا فإنها لا تسمح لـ «ستيليو» أن يعزف على لحن حاجتها إلى الحنان، وعليها أن تحارب هذا الضعف الذي تشعر به في أعماقها، وإلا سيصير مصيرها الارتماء في أحضانه. قالت:

– عندما كنت طفلة وكان المطر يحول دون خروجي اعتدت أن أردد أغنية يا مطر... يا مطر... ارحل بعيدًا، وعد ثانية في يوم آخر. فهل تظن أن سحري سوف يفلح؟ قال وأصابعه تقبض على أصابعها:

– أعتقد أن هناك فرصًا تتحقق فيها الأمنيات، ولم يحدث أن التقيت شخصًا

في وسعه أن يلقي بسحره مثلما تفعلين. وفي هذه اللحظة ترددت أصداء رنين أجراس الباب في أرجاء الفيلا، وزمجرة الرعد، وتألق البرق في عيني «ستيليو» عندما راح كل منهما يحدق إلى الآخر. كانت عيناه تنذران بهجوم مباغت تردد صداه عبر عيني «رافينا».

- 7 -

سأل «ستيليو» متجهمًا:

– من يطرق الباب في مثل هذه العاصفة؟ ونهض واقفًا عندما دق الجرس مرة أخرى، وأردف يقول:

– لابد من أن أجيب الطارق يا «رافينا». قالت:

– بالطبع. والتقت عيناهما، وراودهما سؤال واحد فهز «ستيليو» كتفه في استخفاف وخطا خطوات واسعة، وأرهفت «رافينا» سمعها لعلها تلتقط صوت الزائر حينما يفتح «ستيليو» الباب. وشعرت بأنها مذنبة، فالاتهام الذي سيوجه إليها وإلى «ستيليو» بأنهما عاشقان. وأن «مارك» جاء سعيًا وراءها. وشخصت ببصرها نحو الباب حينما لاح لها شبح طويل بلله المطر وقد وقف عند المدخل. وتحققت مخاوفها العميقة. قال صائحًا:

– «رافينا». وكانت قطرات المطر تتساقط من فوق شعر «مارك» الأسود لتستقر على عينيه، وطفقت نظراته تفحص جسمها النحيل الغارق في المقعد الواسع المكسو بالقطيفة. ولم تستطع «رافينا» أن تحرك ساكنًا، وتركزت عيناها في وجهه الصارم. لم تصدق عينيها في بادئ الأمر، ولكنها كانت حقيقة واقعة أن «مارك» جاء بحثًا عنها. سار إلى الغرفة يتبعه «ستيليو» الذي بدا صبيًا إلى جوار «مارك»، ونفر عصب في أحد صدغيه عندما استدار ليواجه الرسام. قال

«مارك» بصوت بارد تشوبه مرارة الغضب:

– أحب أن تقدم إليّ تفسيرًا لهذا الموقف، ماذا تفعل زوجتي هنا؟ كسا المطر الشرفة ودقت الساعة معلنة الوقت وكأنها تريد أن تنبه «رافينا» بأن مكانها في هذه اللحظة يجب أن يكون في بيتها وليس الاستكانة إلى فنان فاسق. سألت «مارك»:

– ماذا تفعل هنا؟ هل رآني أحدهم وأنا أغادر «الكازا» مع «ستيليو»؟ هل جئت إلى هنا لتأخذني بعيدًا؟ رمقها بنظرة سوداء وقال:

– لا... تعطلت عربتي في مكان ليس بعيدًا من هنا، وأعرف أن «ستيليو فابريزي» لديه تليفون فجئت أستأذن منه في الحديث إلى الجراج، ولم يكن لدي أدنى فكرة أنني سأجد زوجتي مع السيد «ستيليو». مضت لحظة من لحظات الصمت التي تبدو فيها البراءة وكأنها آثمة، ولم يقطع الصمت سوى صوت المطر المنهمر ولم تستطع «رافينا» أن تقاوم رغبتها في أن تختلس النظر إلى «ستيليو»، ولما حاول «ستيليو» الكلام بدت نبرته وكأنها تؤكد كل مظاهر الإثم. قال «ستيليو»:

– كان الجو شديد الحرارة والرطوبة فرأينا أن نقوم بنزهة في السيارة. إنني السبب في دعوة «رافينا» للمجيء إلى هنا لتناول بعض المشروبات. ولما وصلنا فاجأتنا العاصفة، وحاولت أن أقنعها بأنه من الجنون قيادة السيارة عبر الجبال وسط هذا السيل المنهمر. لو أن العاصفة لم تحدث... قاطعه «مارك» قائلا:

– لكنت حملتها عائدًا إلى البيت دون أن أعرف أنها كانت هنا بصحبتك. ونظر إلى «رافينا» بنظرات مبهمة مدركًا أنها كانت ستكتم ما حدث، وعندما تقدم خطوة نحوها تراجعت والذعر يتملكها، وكأنها تخشى من أن يلمسها وقالت له بتحدٍّ سافر:

– هل نخلق من هذا الأمر مأساة؟ احتسيت كأسًا ولم يكن سوى مقوٍ بالثلج.

ولمح «مارك» كأس التيوليب فوق المنضدة الواقعة إلى جوار المقعد الذي تجلس عليه، فالتقطها وراح يتشممها. وأعاد الكأس إلى مكانها وسأل «ستيليو»:

– هل فرغت من رسم صورة زوجتي؟ أجاب «ستيليو»:

– فشل الرسم فشلا ذريعًا. ظننت في البداية أن «رافينا» موضوع سعيد يصلح للرسم، ولكني الآن عرفت أنها امرأة تعسة ولا أستطيع أن أنقل إلى القماش حقيقتها. ليس في وسعي أن أفعل المزيد من الرسم مثلما عجزت أنت على أن تستحوذ على قلبها يا سيد «دي كورزيو». واجه الرجلان كل منهما الآخر حينما تألق بريق ضوء عبر الغرفة، فتطلع «مارك» إليه وقال ساخرًا:

– هل تتصور أنك استحوذت على قلبها؟ أنت تخدع نفسك يا سيد. إن الرجل الذي يستحوذ على قلب «رافينا» بعيد عن هنا. يمكنها أن تغفر له خطاياه، والمرأة تستطيع أن تفعل ذلك من أجل الرجل الذي تحبه. وتطلع «ستيليو» نحوها وبدت الحيرة في عينيه وقال:

– «رافينا». قالت وهي تتطلع إلى «مارك»:

– أرجو العودة إلى البيت. لن أخشى من طرقات الجبل، اتصل بالكراج هاتفيًا ودعهم يصلحون سيارتك. قال «ستيليو» بصوت حاسم:

– خذ سيارتي. إليك المفاتيح. سوف أستأجر زورقا يحملني غدًا إلى «الكازا» لأجمع أدوات الرسم وسوف أعود بسيارتي إلى بيتي. وكان «ستيليو» يتحدى «مارك» في أن يقود السيارة اللوتس في خضم العاصفة، ويخترق بها الطرقات التي تتعرض لانهيار التربة نتيجة للسيل المنهمر ثم انتقل ببصره إلى «رافينا» وكانت عيناه جامدتين. ولم تتفوه «رافينا» بكلمة. كانت واثقة بأن «مارك» سوف يقبل التحدي إذ قال لـ«ستيليو»:

– هل لك أن تعير زوجتي معطفًا؟ وأحنى الرسام رأسه بالإيجاب، وغادر الغرفة ليحضر معطفًا. وحرك «مارك» مفاتيح السيارة بيده، وسأل «رافينا»:

– هل أنت عصبية؟

– وهل يهمك لو كنت عصبية؟ وحملق إليها وبرق ضوء غريب في عينيه وقال:

– أنا معجب دائمًا بشجاعتك. الأمر الوحيد الذي لا يمنع دهشتي هو أن فتاة لها مثل شجاعتك تقع في حب جبان. وتوقف «مارك» عن مواصلة الكلام حينما عاد «ستيليو» وهو يحمل معطفًا واقيًا من المطر. وكانت عيناه مضطربتين وقال:

– يا سيد «مارك»، ألا تمكث هنا حتى تهدأ العاصفة؟ هناك طعام في الثلاجة. أمسكت «رافينا» المعطف وقال:

– «ستيليو»، عندما يصدر «مارك» قرارًا لتنفيذ أمر ما، فلا أحد يمكنه أن يثنيه عن عزمه. إذا سألتك يا «مارك»... كلا لن أتوسل شيئًا... وسارت إلى الباب، وبدت نحيلة وهي ترتدي المعطف الفضفاض الطويل، وقالت:

– ألا نذهب يا «مارك»؟ سرعان ما يهبط الظلام. واستمر هطول المطر بينما أخذت عجلات السيارة تغادر أرض الفيلا. وحدقت «رافينا» بنظراتها عبر النافذة التي راحت المساحات تزيل الماء اللاصق فوق سطحها. وكان «مارك» يمسك عجلة القيادة بثقة تامة، ولم يتفوه بكلمة وإنما كانت نظراته مثبتة على الطريق الممتدة أمامه. وسار بالسيارة نصف ساعة، توقف بعدها عند مكان يجاور أرضًا مزروعة بالحشائش تقع تحت الجبال، ثم استدار نحو «رافينا» وتلألأ ضوء على وجهه المشوه بالندوب، وقال بوحشية:

– لا أستطيع أن أفعل ذلك. وتطلع إلى يديه اللتين تقلصتا على عجلة القيادة فبدت الحروق واضحة واستطرد يقول:

– سيكون من الجنون في مثل هذه الليلة. وتركز بصر «رافينا» فوق وجهه، وأدركت أي ذكرى مخيفة تسيطر عليه بضراوة، وتحول دون مواصلة قيادة السيارة، فقد تذكر «دريستي» حينما وقع في شراك حطام السيارة الأخرى، وفجأة جذب المعطف عنها. فبدا جسمها صغيرًا، وضائعًا في ثناياه، وقال

لها:

– يجب أن نمكث هنا قليلاً. لا... تذكرت الآن، يوجد كوخ راع على مقربة من هنا. تعالي، يمكننا أن نتناول عشاء من لحم الضأن المسلوق إذا أسعدنا الحظ. وراحا يقطعان الحقل بسرعة تحت وابل المطر المنهمر وقد التفت ذراعه حول وسطها، بينما كان المعطف يتطاير في الهواء. ثم توقفا أمام كوخ يتكون من غرفة مستطيلة لها قبة مخروطية الشكل كالصنوبر، وعالج «مارك» الباب فانفتح بسهولة. كانت النار خابية ولا يوجد أي قدر فوق المدفأة، وكشف وميض البرق عن وجود أريكة خشبية عريضة عليها ربطة من فرو الغنم، وكرسي مستدير بثلاث أرجل، وهراوة مستندة إلى الجدار، وهبت الرياح فاهتزت لها الهراوة وسقطت على الأرض، مما دفع «رافينا» إلى أن تقفز بعصبية. قال لها «مارك» وهو يشعل عودًا من الثقاب:

– ادخلي. وطفق يتجول في الكوخ المهجور، ورأى بقايا شمعة مثبتة في فتحة زجاجة فأشعلها، وتطلعت «رافينا» إلى «مارك» وقد وقف يحمي لهب الشمعة بيديه من تيار الهواء. قال لها:

– اقفلي الباب. قالت وهي ترتجف:

– هل تنوي المكوث هنا؟ تركها ليغلق الباب بنفسه، ثم قال:

– ليس هناك بديل لذلك في الوقت الحاضر. إنه مكان غريب يصلح لإيواء اثنين في ليلة عاصفة كهذه. يمكننا أن نشعل النار.. هل تخشين من وجودك وحدك معي، في حين وانتك الجرأة للذهاب بالسيارة وسط العاصفة؟

– إنني أخاف من وجود فئران. قال بابتسامة ساخرة:

– فئران الحقل.. لا تؤذيك. وعثر على كوة في الجدار، وضع فيها الشمعة، التي راحت تلقي بضوئها على «مارك» وهو يسعى نحو المدفأة ليوقد فيها نارًا. وقال:

– الخشب جاف، وسوف يحترق جيدًا. تعالي يا «رافينا». سوف نتمتع

بدف» عائلي قبل أن ينبلج نور الصباح. ودست يديها المضطربتين في جيوب معطف «ستيليو»، فلم يحدث لها من قبل أن انفردت تمامًا بـ«مارك»، حقًا إنه زوجها، ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي يجعلها تشعر بالخجل، وتدرك إدراكًا تامًا أنها امرأة. وانتابها الوهن، فاستندت بجسمها إلى الباب الذي كان يهتز تحت وطأة عصف الريح. قال لها «مارك»:

– لا تقفي هناك في مواجهة تيار الهواء. تعالي يا «رافينا». امتثلت لطلبه، وكأنها مسلوبة الإرادة، وأحست بيديه تلمسان شعرها. فقال لها:

– شعرك مبتل من المطر. سأشعل النار حالاً. وكانت خصلات شعره تنسدل مبللة فوق عينيه، وأحست بإغماءة خفيفة. وعندئذ أدركت ما يريد منها في هذا المكان الغريب الذي يقع في البراري، وعندما بدأت ساقاها تتهاويان، قام سريعًا يرفعها إلى الأريكة، وأرقدها فوق فروة الغنم، وأزاح خصلات شعرها من فوق جبينها، وقال:

– حسنًا... أنا لست غاضبًا من وجودك مع «فابريزي». أنت طفلة مسكينة ممزقة الأعصاب.

– «مارك».

– ولا كلمة... استريحي قليلاً حتى أشعل النار.. وتوجه إلى المدفأة، وبدأ في قطع الحطب، وراح يبحث عن ورقة في جيبه يضعها تحت الحطب حتى تساعد على اندلاع النار، ولمحت «رافينا» أنه يسحب خطابًا من جيبه، ويطلق زفرة حارة من صدره، ثم كوره، ووضعه تحت الخشب، وأضرم النار فيه، وبينما كان الخطاب يحترق سمعت الحطب يصدر طقطقة، وكان «مارك» يحدق إلى اللهب المشتعل وقد ران عليه السكون. فجأة استوت «رافينا» جالسة على الأريكة، وأرادت أن تعرف فحوى الرسالة التي كانت تحترق في المدفأة. سألته:

– «مارك»... ما هذا الخطاب؟ أرجوك انظر إليّ... أخبرني. انتصب قوامه

مشدودًا، وعندما استدار كان قناع أسود اللون يكسو وجهه، وقال بصوت خلا منه الدف»:

– غدًا أخبرك. انزلقت «رافينا» بجسمها تترك الأريكة وقالت:

– كلا أخبرني الآن. ونظرت إلى النار التي كانت تحرق الرسالة. وحولتها إلى رماد وأحست بدقات قلبها تتدافع بسرعة وقال لها بخشونة:

– إنه خطاب مرسل إلى «رودري برينين». عثرت عليه في غرفتك منذ فترة. خطاب لم تبعثي به أوردت فيه مقابلتك له يوم زفافنا. هل أردد على مسامعك كلماتك؟ رفعت «رافينا» يدها وتحسست رقبتها وسمعت صوت «مارك» رقيقًا تشوبه نبرة خطرة وهو يقول:

– احترق الخطاب، لكن الكلمات لم تحترق. كانت تقول: «أرغب في رؤيتك مرة أخرى وأنا لست آسفة. حتى لو غضب «مارك». إن تلك الساعات التي أمضيتها معك ساعدتني على مواجهة موقف بالغ الخطورة. إن روابط الحب بيننا تتطلب السرية التامة. إنني أتعلق بها كلما أحسست بأنني أغرق في عمق الماء الذي أتردى فيه». صمت ثم أردف يقول بغضب:

– هنا توقفت الرسالة. لم تحاولي إتمامها. هل شعرت بأنك لا تحتملين إرسال خطاب إليه في حين كنت تتوقين دائمًا إلى صحبته؟ إن الكتابة عن تلك الساعات التي أمضيتها معه في يوم زفافنا لابد من أنها عذبتك حتى أنك كورت الرسالة، وألقيت بها. ولم يتطرق إلى ذهنك أن زوجك قد يعثر عليها فيلتقطها، ويفضها من باب الفضول. حدقت «رافينا» ببصرها إلى «مارك»، وأدركت سوء الفهم الذي التبس عليه عندما قرأ عبارة «تلك الساعات التي أمضيتها معك». كلمات تحمل معنى واحدًا عند «مارك». فقد ظن أنها هي و«رودري» عاشقان. لابد من سبيل لنفي هذه التهمة، ولكنها رأت صورة المرارة التي ارتسمت على فمه. وأنه على استعداد لأن يزدري أي شيء تقوله. وانتابتها رجفة حينما زمجرت الريح حول الكوخ. فقال لها:

– أنا آسف.. ليس لدينا أي طعام نأكله، أو شراب نحتسيه، وخير لك أن تكوني جائعة من أن تتورط في حادث على طريق الجبل. وبحث «مارك» في جيبه، وأخرج علبة سجائره، واستطرد يقول:

– إن واحدة منها سوف تصيبك بدوار. هل يضايقك إذا دخنت سيجارة؟ قالت بصوت يشوب نبرته اليأس:

– أرجوك، يمكنك أن تدخن. أخرج سيجارة، وأشعلها، ونفث الدخان دون أن يرفع بصره عن عينيها، ولم تحتمل قوة نظراته التي تحاول أن تقرأ ما يدور في عقلها، وسارت إلى المقعد المستدير ذي الأرجل الثلاث، وسحبته قريبًا من النار، وجلست عليه وراحت تدفئ يديها، ثم قالت:

– أنا لست جائعة.. وإنما أريد فنجانا من الشاي. وتصاعدت حلقات الدخان في الهواء، وكأنها علامات تساؤل، وقال:

– «لانونا» سوف تقلق علينا. لماذا لم تمكثي في البيت؟ كان في وسعي أن أعود إلى البيت وحدي، لكن الأمر لا يهم كثيرا. قالت «رافينا»:

– سوف تغامر بحياتك؟ هز كتفيه باستخفاف وقال:

– ولن أغامر بحياتك يا عزيزتي! لا تنظري بانزعاج. لست بصدد أن أعلن عن مدى حبي لك. أنت صغيرة، و«دريستي» كان صغيرا. والحياة حلوة، حتى لو امتزج اللوز المر بالقرنفل. سألته:

– هل كان «دريستي» يشبهك؟ لم يسبق لها أن طرحت عليه هذا السؤال من قبل، ولكنها الآن تشعر بدافع قوي إلى أن تعرف ذلك. وتطلعت إلى زوجها وعلى الرغم من الندوب الرهيبة التي تشوه وجهه إلا أنه بدا لها أنيقًا في ضوء النار المشتعلة. هز رأسه بالإيجاب وقال:

– أجل كان يشبهني. يجب أن أريك صورته. وشدّ على شفتيه وهو يخرج محفظته ويفتحها ويسحب منها صورة صغيرة ويناولها إياها. وراحت تتفحص صورة الطفل ذي الشعر الأسود. عيناه تتلألأن مرحًا، وصفحة وجهه تعكس

صورة وجه أبيه قبل إصابته في الحادث. وطفقت «رافينا» تتأمل الصورة فترة طويلة، وراحت تكافح الدموع التي أوشكت أن تطفر من عينيها. الآن فقط أدركت السبب الذي دفعه إلى البحث عن الفتاة القريبة من قلب «رودري» ليجبرها على الزواج به. منذ أن بدأت الحياة... منذ أمنا «حواء».. ومنذ عهد «هيلين».. كان على المرأة أن تدفع الثمن، ففي وسعها أن تتذوق المرارة مع حلاوة الحب. وعندما أعادت له الصورة تلامست أيديهما. وتذكرت أنهما وحدهما في الكوخ. قالت له:

– يبدو أن الريح بدأت تهمد في الخارج. لكن العاصفة كانت تصفق الباب، والثلج يتساقط مبتلا من مدخنة المدفأة فابتسمت بعصبية. وطقطقت تهز كتفيها باستخفاف. قال «مارك»:

– أنت متعبة. اخلدي إلى النوم. إن الأريكة تصلح للنوم على الرغم من أنها خشنة ولكنها نظيفة. لم تنهض «رافينا» من فوق المقعد وسألته:

– وماذا عنك يا «مارك»؟ أنا مستريحة هنا بجوار النار. قال:

– الحطب أوشك على أن ينوي. وعندما تخمد النار سيزداد البرد في المكان. وأفضل أن تتدثري وأنت نائمة فوق الأريكة.. تعالي. ومدّ إليها يده ليساعدها على النهوض. فقالت له بتردد:

– لا يمكنك الجلوس على المقعد. إنه منخفض وأنت طويل.

– سأكون بخير. النساء يتمتعن بنعمة القلق. قالت:

– إننا نستطيع أن نجلس سويًا على الأريكة. توردت وجنتاها بحمرة الخجل. وكأنها عروس في ليلة زفافها، واستطردت تقول:

– لا تستطيع أن تتجول في الكوخ طوال الليل. لن يطرق النوم أجفاني وأنا أراك لا تقوى على الرقاد. قال ضاحكًا:

– هل أنت المرأة التي تفكر فيّ؟ وفجأة انتصبت قامته أمام المقعد المنخفض التي كانت تجلس عليه، ورفعها بذراع واحدة واستطرد يقول:

– لا أستطيع أن أقاسمك الجلوس على الأريكة، فسرعان ما ينتابك الذعر، وحتى الآن ما زلت عصبية من لمس يدي. أدخلت «رافينا» قدميها في فروة الغنم لتشعر بالدفء، وألقى «مارك» بآخر قطعة حطب إلى المدفأة وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة. وعلى ضوء النار المشتعلة عاد وجلس إلى جوارها، وجذبها إلى كتفه، وراحا يتطلعان إلى النار التي أخذ لهيبها يخبو تدريجيًا. وبدأت أصوات الريح تتلاشى. بينما استغرقت «رافينا» في النوم، ورأسها مستقر فوق كتفه العريضة، وأمضيا ليلة غريبة، وعندما استيقظت «رافينا» عند الفجر، وجدت نفسها بين ذراعي «مارك»، ووجهها يتمتع بدفء عنقه، وظنت وهي نصف حالة أنهما في «برج الفارس». ولكنها أدركت الحقيقة عندما أفاقت تمامًا ورأت كوخ الراعي وبقايا الرماد في المدفأة. تركت بصرها يعود ليستقر على وجه «مارك» الذي كان مستغرقًا في النوم وقد استند بظهره إلى الطاولة، ولما كان البرد الشديد قد زحف إلى الكوخ في أثناء الليل، فإنه جذبها بذراعه وضمها إلى صدره يلتمس الدفء، فلم تشعر بأدنى خوف منه. والآن أدركت كيف يكون الرجل غير محمي وهو في قبضة النوم. كان شعره مشعثًا، وذقنه الذي كساه الشعر أزرق وقويًا. وكانت شفتاه صارمتين، ووجنتاه تبرزان التجاويف تحتهما. أما ندوبه فلم تنتقل إلى ابنه، وإنما ورث عنه الكبرياء والعاطفة. ملكها الذعر، فأسرعت تسبل رموشها، وشعرت بذراعيه تشتدان حولها عندما بدأ يستيقظ وأطلق زمجرة، واستدار بوجهه وهمس قائلا:

– يا حبيبتي. لم يسبق له استعمال مثل هذه الكلمة من قبل، نفذت من فمه ناعمة تشوبها الألفة والمودة وعرفت أنه نصف حالم، ولا يتفوه بها إنسان إلا للمرأة التي أحبها ثم فقدها. فتح عينيه وتطلع إلى «رافينا»، وفي الحال بدت فيهما نظرة الحارس الذي يذود عن أملاكه. وفجأة تبين المكان المحيط بهما، فأطلق سراحها بسرعة، وانتفض واقفًا على قدميه، وقال:

– يا له من مكان كئيب. هيّا بنا يا «رافينا»، المطر قد توقف وحان الوقت لأن نعود إلى البيت. تركت «رافينا» الأريكة، ومدت ذراعيها أمامها، ثم قامت بتسوية شعرها بيدها، وصاحت:

– أشعر بالفوضى في مظهري. وطفق «مارك» يجيل بصره فيها، ولاح التجهم على شفتيه ثم قال:

– يبدو عليك وكأنك أمضيت ليلة مضنية فوق سطح قرميد. قالت:

– انظر إلى نفسك أيضًا. وسبقته إلى مغادرة الكوخ لتستقبل هواء الصباح. رأت ألسنة من لهب الشمس في الأفق، وسمعت الطيور تشدو على الأغصان. سارا فوق الحشائش المبتلة، ووجدا السيارة مغطاة بقطرات المطر. مسح «مارك» الزجاج قبل أن يتخذ مكانه وراء عجلة القيادة، ويستقر إلى جوار «رافينا»، واتجها صوب أشعة الصباح المشرقة. بدأت نسمات الفجر تهب عبر النوافذ، وبدت الزهور متفتحة وامتزج شروق الشمس بأمواج البحر، ليصنعا معًا لوحة رائعة التكوين. وعندما سألها «مارك» عمّا إذا كانت تحب أن يكشف غطاء السيارة، ابتسمت موافقة، والتقطت أنفاسها عندما أخذ الهواء يداعب شعرها المتطاير. إنهما يستحقان مثل هذه الرحلة الصباحية، بعدما اقتسما سويًا ليلة غريبة، أمضياها في كوخ كئيب وناما على أريكة خشبية. وفجأة رأى «مارك» شجرة اقتلعتها الرياح من أرضها تعترض الطريق، فأوقف السيارة سريعًا، وكان من الواضح أنه لابد من المرور بمحاذاة حافة الطريق شديدة الانحدار إذا ما فكر في أن يدور بسيارته حول الشجرة. ومال نحو «رافينا» وفتح لها الباب المجاور لها وقال لها:

– من فضلك اذهبي وحدك سيرًا على الأقدام. لن أعبر بسيارتي حول الشجرة ومعي راكب.

– لكن يا «مارك»... قال:

– لن نناقش الأمر. ودفعها خارج السيارة، واستطرد يقول:

– سيري حول الشجرة.. وانتظريني على بعد خطوات منها. قالت:

– أنت السيد. امتثلت لأمره. لم ينس «مارك» حطام السيارة الأخرى، والمخاطر التي اجتازتها، ولن يجرؤ على أن يجتاز مخاطرة أخرى. وعندما سارت «رافينا». واستدارت حول الشجرة. تبينت أن المسافة التي ستعبرها السيارة بالغة الضيق، وعلى «مارك» أن يجتازها بحذر شديد. فقفز قلبها بين ضلوعها، وراودتها الرغبة في أن تقفل عائدة إليه. وتتوسل إليه ألا يخاطر بحياته. وفي وسعه أن يترك السيارة مكانها ويغلق أبوابها. ويطلب من «ستيليو» الحضور لاستعادتها من هذا المكان، لكنها ما إن كادت تبدأ في العودة حتى رأت «مارك» يدير محرك السيارة. ويسير بها بين نهاية أغصان الشجرة وحافة الجبل. تسمرت قدما «رافينا». وبدت كالتمثال الأصم. لا يتحرك منها شيء سوى شعرها الأحمر المتطاير. وتوقفت أنفاسها. وهي ترى السيارة تنسل من الممر الضيق لتنطلق إلى الطريق الواسع. وتتوقف إلى جوارها. ويفتح «مارك» لها الباب. وينظر إليها نظرات متسائلة ويقول لها:

– ادخلي. وقفت جاحظة العينين. ولم تتصور أنه يخاطر بهذه الطريقة. فانتابها غضب شديد هزها من رأسها إلى أخمص قدميها. قالت له:

– لماذا تشدني إلى حياتك؟ إذا كنت ترغب في أن تعيش مع أشباحك. فلماذا لم تتركني مع «جاردي»؟ إنه سوف يهتم بي.

– «رافينا»... وراحت تبتعد عن السيارة. ثم بدأت تجري في كل اتجاه. ولم تكن تكترث بما قد يحدث، وسمعت وراءها صوت خطوات تقتفي أثرها. وأحست بحشرجة في حلقها عندما أطبق «مارك» على عنقها. وأمسك بها وهو يقول:

– «رافينا».. أنا آسف أنني أفزعتك. ألقت بنفسها عليه وقالت:

– أنت لم تفزعني. ولكنك أريتني كيف يبدو زواجنا في صورة مسرحية هزلية

ساخرة جوفاء. لم يكن شيئًا غير ذلك... ليس هناك حب ولا عاطفة. لا شيء البتة سوى الذكريات التي نحياها.. أوه.. لماذا لا تتركني وحدي؟ هل تعرف يا «مارك» ماذا فعلت بي؟ هل يهمك ذلك كثيرًا؟ هزت رأسها وانعكست أشعة الشمس على شعرها فبدا متألقًا، بينما كانت عيناها قد فقدتا ظلالهما واستطردت تقول:

– عرفت الآن إلى أي مدى أنت تهتم بي. لن أغفر لك.. مطلقًا! وتخلصت منه... وعادت إلى السيارة، واستقرت على مقعدها، وكان الصباح منسّمًا بجمال البكور، فلم تعد تسمع زقزقة الطيور، ولم تعد ترى زرقة السماء، أو المياه الفضية للبحر. ولم تكلف نفسها مشقة التطلع إلى «مارك» وهو يتخذ مكانه إلى جوارها ليقود السيارة. كان وجهها باردًا، ولم تعد شفتاها ترتجفان. تملكها تحفظ بارد، فلم تعد ترغب في التحدث أو حتى سماع أي حديث. واحترم «مارك» صمتها، وهو يتخذ طريقه إلى منزل السرو. مرت الأيام بعد ذلك خاوية، لم يأت «ستيليو» إلى البيت، وفي خلال النهار كانت تقوم «رافينا» بجولة في القرية. وترتقي التل حتى تبلغ قمته، أو تستلقي في تكاسل على الشاطئ، وتسلمت رسالة من «جاردي»، وردت عليها فوصفت له «كاسيل مونتي» باستفاضة. ولكنها كانت مقتضبة في الكتابة عن حياتها مع «مارك». وسوف يعزو سبب اقتضابها إلى خجلها الطبيعي، وفي ختام الرسالة بعثت تمنياتها الطيبة إلى «رودري». ولم تستطع الكتابة إليه بعد تلك الرسالة التي وقعت في يدي «مارك». ولم يحاول «مارك» الإشارة إلى الرسالة الناقصة ثانية، وكانت تدرك أنه قرأها مرارًا قبل أن يلقي بها إلى النار. وأنه يقتبس منها عبارات كتبتها كاملة. من بينها عبارة «تلك الساعات التي أمضيتها معك». كيف تستطيع أن تقنع «مارك» بأن الحديث وحده هو الذي ملأ هذه الساعات التي أمضتها معه. اتخذت «رافينا» طريقها إلى مكتب بريد القرية لتبعث برسالتها. وفي طريق عودتها مرت بمنزل جلست ببابه

سيدة ترتدي شالاً أسود اللون، وتصنع إحدى شرائط الزينة، فتوقفت لتبدي إعجابها بالشريط، وسألتها إن كان في وسعها شراؤه. دعتها السيدة إلى داخل البيت لتلقي نظرة إلى عينات مختلفة من صنع يديها، فاشترت ياقة جميلة، وزوجًا من الأساور. وقالت المرأة إن اسمها «فيرتيويللا»، وطلبت من «رافينا» بابتسامة وقور أن تمكث قليلاً وتتناول فنجانًا من القهوة معها، وكان ارتياد طرقات القرية جعلها تشعر بالظمإ، فجلست إلى مائدة تكسوها المرأة بوشاح من الحرير الأزرق، وانطلقت المرأة بسرعة تجول في مطبخها الصغير، وتعود بالفطائر لتقدمها إلى «رافينا» فكانت لذيذة. قالت «رافينا»:

– يجب أن تعلميني طريقة عمل الفطائر. اعتدت طهو بعض الأطعمة قبل زواجي، ويجب أن أعيد المحاولة ثانية وتحدوني الرغبة إلى غزو المطبخ في «الكازا»، لكن «دونا جوكاستا» تدير كل شيء، وأنا لا أحب أن أتدخل في شؤونها. وحدقت «فيرتيويللا» إلى وجه «رافينا» وانتابتها الدهشة لهذا النبأ الجديد، ثم قالت ببطء:

– أنت تختلفين عن السيدة «دوناتا» فهي كانت تدير كل شيء، ولم تحاول أن تشتري مني أحد الشرائط لتزين بها ثوبها، بل اعتادت أن تشتري ثيابها من «روما»، وكانت أنيقة ومحبوبة جدًا. قالت «رافينا» بهدوء:

– رأيت صورتها، كانت فاتنة. قالت «فيرتيويللا»:

– كانت تبدو سيدة عظيمة. وأحست «رافينا» بنبرة ساخرة في صوت «فيرتيويللا»، كما أن نظرتها كانت تدعو إلى التساؤل. وفتحت «فيرتيويللا» صندوق سجائر موضوعًا فوق المائدة، وتناولت علبة أوراق الكوتشينة ثم قالت:

– إنها سيدة عظيمة مثلك، هل تحبين أن أقرأ طالعك؟ وضعت «فيرتيويللا» الورق وقلبت الصور على وجهها فوق المائدة. فدق قلب «رافينا» وهي تقول:

– أنت تعنين.. أنك تريدين قراءة حظي؟ هزت المرأة رأسها بالإيجاب،

وبدت في صورة امرأة غجرية بوجهها الذي لفحته أشعة الشمس، وشالها الأسود الذي يكسو رأسها، وكانت عيناها مسلطتين على وجه «رافينا»، وقالت لها:

– ألا تخافين من قراءة الورق ومما قد يكشفه لك؟ وألا يراودك الشك فيما يقوله لك؟ هزت «رافينا» رأسها بالنفي وقالت:

– أبدًا.. أنا سلتية، وهذا معناه أنني لا أسخر من السحر، وأؤمن بوجود أشخاص لهم القدرة على قراءة الغيب.

– إذن اقلبي ثلاث ورقات لتبدو صورها أمامي. امتثلت «رافينا» لطلبها، وقامت مضيفتها بفحص الأوراق، وكان الهدوء يسود البيت إلا من بعض الأصوات التي تأتي من حفيف الحطب الموجود فوق السطح، وبين لحظة وأخرى كان الحمار يرفس المربط وكأنه يتململ من صحبته، وأخيرًا قالت «فيرتيويللا»:

– آه... هناك احتفال ينتظرك يا سيدتي. هل ترين؟ هناك مهرج في أول ورقة وقع اختيارك عليها، وهو مستغرق في الضحك. أجل، احتفال. وقت طيب لك. ابتسمت «رافينا» وقالت:

– ربما يكون احتفال «مادري روزاريا» الذي سنقوم بمشاهدته.

– أنت والسيد..

– أجل. إنه يرغب في أن نذهب إلى هناك هذا العام. هزت «فيرتيويللا» رأسها، ثم ركزت عينيها السوداوين في الورقة الثالثة، وكأن الورقة الثانية لم تثر اهتمامها كثيرا. وتمتمت قائلة:

– هناك طائر بأجنحة سوداء، آه، نذير نحس يا سيدتي! من المحتمل أنه يعني... وتمهلت قليلا لتفحص وجه «رافينا» التي سألتها:

– ماذا يمكن أن يعني؟ أرجوك أخبريني. راحت «فيرتيويللا» تخلط الورق ثم قالت:

– أوه. وقت غير سار. ربما أخبار سيئة. آه، لكن هذا مجرد تسلية. ويجب عليك ألا تأخذي الأمر باهتمام بالغ. وقفت «رافينا» وقالت وهي شاردة الفكر:

– أبدًا، يجب أن أعود إلى البيت. أشكرك على شرائط الياقة والأساور. ستبدو جميلة على ثوبي الأخضر. وفي طريق العودة إلى «الكازا»، أخذت الأفكار تطن في ذهنها حول ما قالته أوراق الكوتشينة. وحاولت أن توحي لنفسها أنها مجرد تسلية، ولكنها ما إن كادت تقترب من «منزل السرو» حتى حلق طائر موحش أسود اللون في كبد السماء. كان الطائر الأسود الموحش الذي رأته في الورقة التي قلبتها أمام «فيرتيويللا». وعندما دخلت فناء البيت وجدت «مارك» يقف في ظلال إحدى فجوات المنزل ينفث سيجارة، أسرعت نحوه وهي تمسك بالطرد الصغير الذي يحتوي على شرائط الزينة، وقالت له:

– مرحبًا. وأرادت أن يضع ذراعه حولها، وأن يطرد دفء رجولته البرودة التي تملكتها منذ لحظة وجيزة، ولكنها كانت تشكو من البرودة نحوه لعدة أيام مضت ولم يبذل أية محاولة لكي يلمسها. سألها:

– أين كنت؟ قالت:

– ذهبت إلى القرية واشتريت بعض شرائط الزينة. وأحست بشيء يعتصر حلقها ويخنقها، وبدا لها أنه يدرك حاجتها إلى الراحة، ثم استطردت تقول:

– اشتريتها من سيدة تدعى «فيرتيويللا». جلست إليها واحتسيت فنجانًا من القهوة معها. قال وهو ينفض رماد السيجارة:

– حسنًا.. أنا سعيد لأنك أقمت علاقات صداقة مع بعض الناس. أرخت جفنيها وأحست بالدموع تطفر من عينيها فدخلت وعبرت الصالة التي تؤدي إلى درجات السلم، وفي هذه اللحظة لم يبد لها منزل «السرو» غريبًا عنها أو وحيدًا فوق الجبال!

- 8 -

كانت أشجار الكروم مثقلة بعناقيد العنب، وكان عصيرها حلوًا، لكن «رافينا» أحست بمرارة عندما تذوقته، لأن العناقيد لم تكن معدة بعد لعصرها. الجميز أينع فوق الأشجار، وحدائق الليمون تفوح برائحة نفاذة. كل شيء مفعم بالحياة يحمل «رافينا» على الهروب إلى المغارة حيث تقرأ كتابًا أو ترطب أصابعها في النافورة، وتتأمل مليًا في المستقبل. وأحيانا تمر بها ساعات تستمتع فيها بوحدتها قبل أن يقطع خادم عليها خلوتها ليدعوها إلى تناول طعام الغداء أو تناول الشاي مع زائر. وعندما تأتي زوجات شركاء «مارك» في العمل لزيارتها كن يُلمحن لها أنها تمتلك المقدرة على أن تسوس قيادة رجل قهار مثل «مارك»، وكانت تضحك قائلة:

– إنني لا أقوى على أن أسوس أمر «مارك»، وإلا كنت مثل الهرة الصغيرة التي تحاول أن تروض النمر. وكانت بعض النسوة يسألنها:

– وهل تطرق حديثه معك إلى الكلام عن «دوناتا»؟ كانت فتاة جميلة ولكنها لم تكن هرة صغيرة. ولم تشهد «دونا جوكاستا» مثل هذه الزيارات التي كانت تطرح فيها النساء مثل هذه الأسئلة، ولكنها كانت تحب أن تسمع ما دار في هذه اللقاءات، وتدعو «رافينا» من حين إلى آخر إلى صالونها لتتناول معها كأسًا من الشراب. وفي إحدى المرات كانت تهز كأسها وهي تستمع إلى الحديث الذي دار بين «رافينا» وضيوفها، ونظراتها مسلطة عليها، لكن «رافينا» هربت من نظراتها ليستقر بصرها على الشراب الذي يتراقص في كأسها، وانتابتها رغبة مفاجئة في أن تمتطي جوادها وتنطلق به. أسرعت إلى غرفتها، وبدلت ثيابها، وارتدت سروالاً وقميصًا، وعقصت شعرها، وطوته تحت قبعتها، وبعد عشر دقائق امتطت صهوة جوادها، وانطلقت إلى رحاب الشمس التي كانت تفيض على الكون بأشعتها. كانت هذه الأيام حارة

وطويلة، لكن الريح كانت تهب دائمًا عبر السهل الواسع المعشب المطل على البحر، وكان من دواعي البهجة أن يتريّض المرء بجواده ليتنسم الهواء المفعم برائحة نفاذة. وأحست «رافينا» أن الجواد يطير بخيلاء تحدوه سعادة لا تقل عن سعادتها وهو ينطلق إلى رحاب الهواء الطلق حتى بلغا حدود السهل، وعلى حين فجأة طارت قبعتها من فوق رأسها، وكان لزامًا عليها أن تترجل لتستعيدها، لكن الهواء حمل القبعة بعيدًا حتى استقرت عند أكمة الحشائش التي تقع على حافة المنحدر الصخري الشاهق. وعندما انقضت على القبعة تمسكها بيدها، لمحت عند المنحدر رجلا وفتاة يتجاذبان الحديث، وكانت الفتاة ذات شعر أسود اللون يتطاير مع نسمة الهواء، وتتحدث باهتمام شديد معه، وفجأة أحاطت عنقه بذراعيها، ودفنت وجهها في وجهه. ولم يدفعها عنه، وإنما أخذ يضمها إلى صدره. كان العشب يبدو أطول من الاثنين، فركعت «رافينا» وراحت تحدق إليهما بعينين شابتهما برودة الثلج. إنها تستطيع أن تتعرف إلى زوجها في وسط أي زحام، ولا يمكن أن تخطئ شخصيته وهو واقف مع الفتاة. نهضت «رافينا» وابتعدت وتذكرت الفتاة التي كانت بين ذراعي «مارك». إنها الفتاة الحافية القدمين التي شاهدتها في المطعم حيث قامت على خدمتها بتقديم أطباق السردين. أحنى الجواد رأسه يلتهم العشب، وحينما أراحت «رافينا» رأسها على سرجه أدار رأسه، ووهبها نظرة حنان، وكأن بهجتها المتدفقة انتقلت إليه. لم يكن شعورًا بالغضب أو بالصدمة هو الذي انتابها، وإنما شعور بالحزن؛ لأن «مارك» أجبرها على الزواج به، بينما كان في وسعه أن يجد سعادته أو ربما يستطيع أن ينسى ماضيه مع فتاة من بنات أهله ولدت وترعرعت هنا، وتحب الجزيرة كما يحبها هو وتفهم عقلية أهل «سردينيا»، وتسبر أغوارهم. تنهدت «رافينا»، وتنهد جوادها بدوره، وأدارت رأسه ليتخذ طريقه إلى «الكازاتشيبريسو»، عائدة إلى المنزل ومرورًا بفناء الكروم، اعتذرت عن عدم الهبوط إلى غرفة

الطعام لتتناول الغداء، وعللت اعتذارها بأنها تناولت بعض عناقيد العنب الفجة فأصابتها بألم خفيف في معدتها. ترك «مارك» ربطة عنقه غير معقودة، واقترب من فراشها، وانحنى عليها وتحسس جبينها بيده وقال لها:

– أنت تعانين من حمى خفيفة، سوف أستدعي لك الطبيب. أجفلت من لمسة يده وقالت:

– لا.. أرجوك لا تفعل يا «مارك» سأشعر بتحسن حالا. كل ما في الأمر أنني لا أشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام. قال مقترحًا عليها:

– ربما وجبة خفيفة تناسبك. هزت رأسها بالرفض؛ لأنها لم تكن تشعر بأدنى شهية للطعام، وكان كل ما ترغب فيه هو أن يدعها وحدها، فجحظت عيناه، وألقى المصباح عليها بضوئه فبدت «رافينا» ضائعة وحزينة. سألها:

– هل ترغبين في أن أمكث إلى جوارك؟ ندت من فمها كلمة:

– لا.. لا.. سأكون بخير.

–ما بك يا «رافينا»؟ تطلعت إليه فرأت ربطة عنقه المحلولة، وشعره الأشعث، وبدا لها كأنه كان متعجلاً في ارتداء ملابسه، وشعرت بطعنة نجلاء تخترق ظهرها عندما أبدى رغبته في المكوث معها، وودت لو أبدت له احتقارها لرغبته، في الوقت الذي يكرس فيه كل أفكاره وأشواقه للفتاة الأخرى. قالت له:

–أريد أن أنفرد بنفسي.. أشعر بألم خفيف.

– ألأنك تناولت الحصرم؟ أشاحت بوجهها عنه، ولكنه جلس يتفكه إلى جوارها على الفراش، وأمسك برأسها المتوج بشعرها الأحمر، وانتشرت خصلاته فوق الوسائد البيضاء، وتلألأت عيناها الخضراوان وسط امتقاع لون وجهها. سألها:

– لم كل هذا العبوس؟ هل قالت «لانونا» شيئًا أثارك؟ لديّ انطباع بأن وشائج الصداقة بدأت تربط بينكما.

– هل من الضروري أن أقدم إليك تفسيرًا لكل حالة نفسية أمر بها؟ ألا تدعني أنعم بالهدوء؟

– أنت في حالة نفسية غريبة، وهذا ما يقلقني يا «رافينا».

– لا تبالي البتة يا «مارك».. ولا تفسد طعام غدائك بسببي. شاهدت نظرة عتاب في عينيه، وتساءلت هل يجرؤ على أن يعاتبها؟ توسلت إليه قائلة:

– اتركني وحدي. أنا.. أنا لا أحتمل أن يلمسني أحد الليلة. سألها بهدوء:

– أيهما تكرهين أكثر.. ندوبي أم قبلاتي؟ وشعرت مرّة أخرى بطعنة من الألم تخترق جسمها، وارتسمت صرخة مكتومة على فمها سرت في أوصالها، فأطلق «مارك» سراحها، وتركها ترقد ساكنة فوق الفراش، ثم غادر غرفتها إلى غرفته. وأغلق الباب بهدوء وراءه. ولم يقم بزيارتها ثانية. وبعد نصف ساعة جاءتها صينية عليها شريحة من البطيخ، وقطعة لحم، وبطاطس، وإلى جوار كل هذا رأت ورقة مطوية، وأحست «رافينا» باهتزاز أصابعها وهي تقوم بفضها، فقرأت: استدعيت في مهمة عمل، وأرجو أن أعود في نهاية الأسبوع مع موعد الاحتفال بعيد «مادري روزاريا». ربما نكون عندئذ في أحسن حال. «مارك».

حدقت «رافينا» إلى الخط الأسود الفاحم، الواضح وضوح الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم التي كانت في أحضان «مارك»، وبهدوء سحقت الورقة. كان يعلم تمامًا أن زواجهما يشوبه التوتر الحاد، ومع هذا أجبرها على الرضوخ لرغبته، ورغم الشك الذي يراوده عن علاقتها بـ«رودري» فإنه هو السبب في أن حياتهما لا تطاق. تناولت طعامها دون أدنى إحساس بمذاقه، ثم جلست تجاه النافذة، وراحت تتطلع إلى القمر وهو يعتلي قمة أشجار السرو، وكانت أشعته الفضية، والنجوم المتلألئة تغسل صفحة السماء كما تنعي هي وحدتها!

استيقظت «رافينا» في صباح يوم العيد يحدوها الإحساس بالاضطراب والأمل الذي يخالج كل شابة. إنها سوف تستمتع بيوم كامل تهرب فيه من «الكازا».. يوم كله مرح وانطلاق. عاد «مارك» متأخرًا في الليلة التي تسبق يوم العيد، واستطاعت أن تسمع حركاته في الغرفة المتاخمة لغرفتها، وهو يفتح الدولاب ويسقط حذاءه، ربما نتيجة لاضطرابه بقدوم اليوم التالي. أخذت «رافينا» حمّامًا، وساعدتها وصيفتها على ارتداء ثوب الجدّة الكبيرة «ديلمزا» وكانت الوصيفة فرحة بالعيد، وعلمت «رافينا» منها بأن القرية بأسرها تنطلق إلى التلال في هذا اليوم. كل أسرة تركب عربة مزينة أروع زينة، ومزدانة بالشرائط الملونة، وحتى الأتن تكون مكسوة بالورود. ابتسمت «رافينا» وقالت:

– أظن أنه احتفال ديني.

– أجل يا «بادرونسيتا». تتقدم صورة «مادري روزاريا» الموكب الذي يحمل المشاعل، بينما يقوم الكاهن بتوزيع البركات على كل إنسان. ثم يبدأ المهرجون في أداء ألعابهم النارية على أنغام الموسيقى.

– أرى مدى اشتياقك يا «روزيتا» إلى الذهاب إلى هناك. هل سيذهب صديقك معك؟ توردت وجنتا «روزيتا» بحمرة الخجل، وخفضت جفنيها، وقالت:

– «تونيو» سيصحبني معه على ظهر جواده، إنها الطريقة التي يذهب بها المحبون إلى الاحتفال. قالت «رافينا»:

– يا له من تقليد جميل! ثم فتحت صندوق مجوهراتها، وتناولت صليبها ووضعته على صدرها فوق بلوزتها البيضاء، ولحظت وجود قرط كانت نادرًا ما ترتديه، أخذته وأمرت «روزيتا» أن تقف ساكنة حتى تثبته في أذنيها. فزاد تورد خدي الفتاة وهي تقول:

– «بادرونسيتا».. هذا القرط لي أنا؟

– أجل.. كم هو جميل في أذنيك! والآن انطلقي، واستعدي للذهاب إلى الاحتفال مع صديقك «تونيو». أمسكت الفتاة بيد «رافينا»، وراحت تقبلها،

وقالت لها:

– أنت طيبة القلب. إنني سعيدة الحظ أن أقوم على خدمتك يا«بادرونسيتا».

– انطلقي الآن، ولا تجعلي صديقك يطيل انتظاره. وهزت الفتاة رأسها لتشعر باهتزاز القرط المتلألئ في أذنيها، وبابتسامة سعيدة أسرعت تغادر الغرفة، وعندما ثبتت «رافينا» الصليب حول عنقها، تساءلت لماذا لا يحدوها الإحساس بأن تكون خلية البال مثل وصيفتها التي انطلقت إلى الاحتفال بصحبة شاب يحبها؟ كان الهدوء يسود الغرفة المجاورة، وحدست أن «مارك» هبط إلى الدور الأرضي لتناول طعام الإفطار، وشعرت بطعنة ألم؛ لأنه لم يأت لرؤيتها وهي ترتدي ثوبها الجميل الذي قدمه إليها.راحت تتأمل نفسها في المرآة الطويلة المثبتة في الخزانة، وحاز مظهرها على إعجابها. كان الثوب أخضر اللون بحافته أهداب قمحية اللون، تلائم بشرتها، وشعرها عقصته في تسريحة بديعة، واشرأبّ عنقها من بين ثنايا فتحة البلوزة، وتألقت عيناها بخضرة الجواهر، وعلى الرغم من تجاهل «مارك» لها، والاضطراب الذي اجتاحها إلا أن عزمها قر على الاستمتاع بكل لحظة من لحظات الاحتفال. وتساءلت: هل تتوقع وجود «ستيليو» هناك؟ افتقدت مداعباته وتمنت أن تراه. وبشعور فتاة تعيش في أوائل القرن، جمعت أطراف ثوبها في يدها، واتخذت سبيلها، وراحت تهبط درجات سلم «برج الفارس»، ولم تقابل أحدًا في طريقها، فالخدم نالوا إجازة للمشاركة في الاحتفال، مما أشعرها بأن «الكازا» أصبحت مهجورة. عبرت «رافينا» البهو، ودلفت إلى غرفة المعيشة، حيث وجدت طعام إفطارها معدًّا على المائدة: القهوة.. والخبز.. والعسل، وتساءلت وهي تحتسي القهوة: إلى أي مكان توجّه «مارك» الآن؟ ربما يكون بصحبة «لانونا» التي ذكرت في الليلة السابقة بأنها كانت تحرص على مشاهدة الاحتفالات، لكن عظامها لم تعد تساعدها الآن على مغادرة البيت. انتاب «رافينا» القلق،

فلم تستطع المكوث، فانطلقت إلى الفناء حيث وقفت تستمتع بأشعة الشمس، وراحت تتناول قطعة من الخبز المقدد عليه طبقة من العسل، وبينما كانت تمسح شفتيها، تناهى إلى سمعها صوت حوافر تقعقع فوق الأرض، ولاح الجواد «أدونيس» في الفناء، وعلى ظهره «مارك». هز الجواد عرفه، وبرزت عضلاته تحت سرجه المصنوع الأسود، وكان «مارك» يرتدي بنطلونًا قصيرًا أسود اللون، وصدارًا مطرزًا فوق قميص مكشكش، وأكدت حافة قبعته تألق عينيه. كان يبدو في كل شبر منه واحدًا من أهالي «سردينيا» أو فارسًا متكبرًا ينطلق للصيد بصحبة الصقور وكلاب الصيد. قال «مارك» لـ«رافينا»:

– تعالي... اصعدي واجلسي أمامي فوق الجواد. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تشدها عيناه، فقد سحرتها من قبل قوة إرادته، وعندما مال نحوها، تشبثت ركبتاه بالسرج، وبحركة قوية رفعها وأجلسها أمامه، واقشعر بدنها قشعريرة خفيفة، مقترنة بسرور خفي، وأمسك بها بشدّة بينما أخذ الجواد يبارح الفناء، لينطلق إلى عرض الطريق. وبعد لحظات أصبحا ضمن الموكب المرح الذي كان يسلك طريقه متجها إلى الجبال حيث كنيسة «مادري روزاريا». وكانت البغال محملة بأكوام من الفراش والأطفال الهازجين والعربات المطلية باللونين البرتقالي والأزرق. تطايرت أشرطة الزينة في الهواء وجياد عربية امتطاها العشاق الذين راحوا يطلقون أصواتهم بالغناء على أنغام آلات الأكورديون. كان المنظر كالحلم الجميل، و«رافينا» تبدو كالطفل المأخوذ الذي لا يجرؤ على الحديث أو الحركة خشية من أن يتبخر سحر الحلم، وشعرت بـ«مارك» يختلس النظر إليها، ولم تقو على التفكير في الأيام الثلاثة التي أمضاها بعيدًا عنها، فكانت مأخوذة بسحر اللحظة التي تعيش فيها. وتطلعت إليه وغطت رأسها بوشاح حريري تتقي به حرارة الشمس، وقالت له:

– المنظر بديع، أليس كذلك؟ انظر إلى هؤلاء الصبية الأربعة الذين يمتطون

البغال، وهذه المرأة التي تحمل الطعام فوق رأسها. على فكرة يا «مارك».. نسينا إحضار الطعام لنا. ضحك «مارك» وبدا خلي البال مرحًا، ولم تستطع أن تمنع دهشتها من رؤية هذا التألق الذي لاح في عينيه وقال:

– قدمت زوجين من الغنم للحفل الذي سيقام هذا المساء، أما عن طعام الغداء فإننا سنجد العديد من الناس الذين سيسارعون إلى تقديم الفطائر والجبن، والفاكهة. ولا أدري كيف سنأكل كل ما يقدمونه إلينا؟ ازدادت عيناه عمقًا وسوادًا عندما راح يتفرس في «رافينا» ثم أردف يقول:

– لم أشهد الاحتفال منذ مدّة.. وأخشى من أن يغمرنا الناس بكرمهم. وبينما كان «مارك» يتحدث إلى «رافينا» أطلت امرأة من عربتها وقالت:

– إنه حدث جميل أن يشاركنا البادرون وزوجته هذا العام، فلتباركهما «مادري روزاريا».

– وأنت أيضًا يا سيدتي وزوجك الطيب، وأولادك الصغار. وأحست «رافينا» بذراع «مارك»وعندما تطلعت إليه رأت في وجهه هذا الجمال الأسمر الذي أشارت إليه السيدة «فيرتيويللا» يوم اشترت منها أشرطة الزينة، إذ قالت: «إنه أشبه بأمير... بل رجل تعشقه الفتيات!» واليوم يبدو «مارك» للمرّة الثانية وهو يرتدي الثوب «السردي»، وعيناه فرحتان بمنظر الموكب والأطفال والجمال المتوحش للجبال، كما رأت فيه رجلاً لا يتحرق إلى الانتقام لنفسه، فرفعت يده المكسوة بالندوب في إيماءة تنم عن عاطفة، وكأنها تريد أن تخفف من ذكرى الألم الذي اعتصر عظامه، وبشرة يده التي احترقت. ولم يتبادلا الحديث ثانية حتى توقف الجميع لتناول طعام الغداء، في مكان يقع عند منتصف الطريق المؤدي إلى الجبل، وما كاد «مارك» يرفعها من فوق الجواد ويهبط إلى الأرض حتى أحاط بهما العديد من أفراد العائلات الذين راحوا يقدمون إليهما ألوانًا من الطعام. إنها نزهة تتسم بالمرح، جلسا على العشب وراحا يلتهمان الخبز مع شرائح اللحم والزيتون الأسود، ويحتسيان

كؤوس الشراب، وكانت الأغاني تتردد على أنغام الموسيقى، وعندما حان الوقت للعودة سارا إلى حيث كان يقف «أدونيس» بجوار جدول، وشعرت بيدي «مارك» تكتنفهما قسوة خفيفة، فندت منها صرخة قائلة:

– «مارك». قال لها:

– أيتها الساحرة الصغيرة. عيناك في خضرة أوراق الشجر يتلألأ فيهما سحر يحطم قبضتي، أو يحيلني إلى تمثال أصم. تلاحقت أنفاسها عندما جذبها بعيدًا عن الجواد، واختفى بها وراء صخرة كبيرة تتاخم الجدول، وهناك أجفلت، وغطت عينيها بذراعيها، ومال «مارك» نحوها، وارتكز بمرفقه على الصخرة، وراح يتطلع إليها، وتهدلت خصلات شعره الأسود فوق عينيه حيث تألقت فيهما حيوية الشباب المتوحش. وقام بحل جدائل شعرها، وأخذ يلف الخصلات حول عنقها الأبيض وسألها عن «رودري» من جديد فقالت مدافعة:

– هذا موضوع ليس له مكان في يومنا هذا، أرجوك، انس «رودري»، وأنا سوف أنسى أمر تلك الفتاة. وتوقفت عن مواصلة الحديث عندما ضاقت عيناه، وازدادت حدّة، وسألها:

– أية فتاة تقصدين؟ قالت:

– أنت تعرف ما أعنيه. الجميع شرعوا في الاستعداد للرحيل، وخير لنا أن نرحل معهم. ألقت «رافينا» نظرة متعجلة إلى وجهه وتجهمه، وحينما خطا خطوة واحدة أخذت في الدوران حول الصخرة هاربة منه. وسارت إلى حيث كان يقف «أدونيس»، وكان الناس يستعدون لقطع نصف المسافة المتبقية التي تؤدي إلى الكنيسة فوق الجبل، وكانوا يرددون أن الريح وحدها هي التي تدق أجراسها. وبلا تفكير أسرعت نحو الجواد، ووضعت قدمها على الركاب، وسمعت صرخة عاجلة:

– «رافينا». ظنت أنها صرخة غاضبة، فأمسكت بعُرف «أدونيس» ليساعدها

على امتطائه واستدار الناس يتطلعون إليها، وبدا الاهتمام على وجوههم عندما تراجع الجواد إلى الوراء، ليلقي بها على ظهرها وقد تعلقت قدمها بالركاب وشعرها اللامع يتجرجر على الأرض. تعالت الصرخات تنبه إلى الخطر المباغت، فأسرع «مارك» إلى الجواد الذي ارتفعت ساقاه الأماميتان عاليًا، فأمسك باللجام ليكبح جماحه ويهدئ من روعه، وفي الوقت نفسه سارع شاب لإنقاذ «رافينا» التي كانت تعض على شفتها من شدّة الألم. أطلق «مارك» سراح قدم «رافينا» من قبضة الركاب، ولم تستطع أن تكتم صرختها من الألم الذي نجم عن التواء كاحلها، فناولها البعض قليلاً من الشراب، وقام البعض الآخر يغمس قطعة قماش في ماء بارد ثم عصبوا بها الكاحل. أبعد «مارك» خصلات شعرها عن وجهها الشاحب ثم قال:

– سأعود بك إلى البيت. أمسكت بذراعه وقالت:

– لا، إنني أريد أن أحضر العيد. قال غاضبًا:

– عيد سعيد. بينما كانت الوجوه تطل من فوق كتفه، تمتمت امرأة تسأل «البادرونسيتا» أن تركب معها ومع أطفالها عربة العائلة. حاولت «رافينا» أن ترسم ابتسامة فوق شفتيها المرتجفتين، ثم قالت:

– أرجوك يا «مارك»، تخلص من الاضطراب الذي يكسو وجهك. أنت تخيفني أكثر مما فعله «أدونيس» بي. قال:

– كان من الممكن أن يسحقك الجواد بحوافره. ماذا كنت تحاولين عمله؟ هل كنت عازمة على الهروب ثانية؟ عضت على شفتها وقالت:

– «مارك».. كل واحد منا يعترض طريق الآخر.

– هل تعترضين طريقي؟ تحدته بعينيها الخضراوين قائلة:

– إذا كنت ترغب في أن أقول لك نعم إذن هي نعم. قال «مارك»:

– يومًا ما سوف أصفعك يا «رافينا». وكان أحدهم يعرف الإنجليزية، فأطلق ضحكة خافتة، كسرت حدّة التوتر الذي ساد الموقف، فرفعها «مارك» فوق

ذراعيه، وحملها إلى عربة يقودها أتان هزيل، تتطلع من فوقها رؤوس أطفال صغار دفعتهم أمهم جانبًا قائلة لهم:

– أفسحوا المكان للسيدة «رافينا»! وقدمت إليها وسادة لتجلس عليها، ثم أردفت تقول:

– ضعي قدمك فوق هذه الوسادة.. يا سيدة «رافينا»! ابتسمت «رافينا» في وجه الأطفال الأربعة وقالت:

– شكرًا، أنتم أكثر طيبة مما كنت أتصور. وراحت «رافينا» تتطلع إلى وجه «مارك»، وبعد بضع كلمات تبادلها معها استدار وسار إلى حيث يقف «أدونيس» الذي نكس رأسه نحو الأرض، ورأته يعتلي السرج، وعندما جالت ببصرها في العربة رأت طفلة صغيرة ترفع يدها إلى وجنتها، وكأن عينيها تسألان «رافينا» سؤالا فأجابتها برقة:

– السيد... زوجي جرح وجهه في حريق! قالت الطفلة:

– مسكين وجهه. وأشاحت «رافينا» بوجهها عندما أحست بالدموع تكاد تطفر من عينيها. وطفقت تقول لنفسها: «أوه، «مارك»، أريد أن أفهم السبب الذي يشد كل منا للآخر؟ والدافع الذي يدفع الواحد إلى الابتعاد عن الآخر؟». أخذت الأتان تسعى وترتقي الممرات الملتوية المؤدية إلى كنيسة «مادري روزاريا». وترددت في الأرجاء دقات الأجراس التي نصبت في برج الكنيسة. قالت أم الأطفال الأربعة:

– أوشكنا على الاقتراب من الكنيسة. ولاحت لهم جدران الكنيسة، والبرج المخروطي الشكل، والأبواب المفتوحة، ورأت «رافينا» جوادًا أسود اللون فوق التل، وفارسًا جالسًا على ظهره في هدوء تام، يقف وحيدًا، تكتنفه العزلة، وقد نأى بعيدًا عن ضجيج الموكب ودقات الترحيب التي تعلنها الأجراس. تساءلت «رافينا» وهي تراقبه: فيم يفكر هذا الفارس وهو جالس هناك؟ هل يفكر في آخر مرّة شاهد فيها الاحتفال، أم المرّة الأولى التي حضر

فيها الاحتفال بصحبة «دوناتا»؟ لابد من أنهما جلسا سويًا فوق السرج وهما يرتقيان الطريق المؤدي إلى الكنيسة، ولابد من أنه كان يهمس لها على أنغام دقات الأجراس قائلا: «أحبك يا «دوناتا».. سأحبك دائمًا». وفجأة أدار رأس جواده، واقترب من العربة التي توقفت عند جانب الطريق وقال:

– مرحبًا بك في كنيسة «مادري روزاريا». سندخل فيما بعد لنشعل الشموع. أخبريني كيف حال كاحلك؟ انزلق «مارك» من فوق الجواد، وبادر إلى مساعدتها على مغادرة العربة، وسمعا سويًا صوتًا هادئًا يقول:

– مرحبًا. التفت نحو صاحبة الصوت، فوجد الطفلة الصغيرة تتعلق بالتنورة الحريرية التي ترتديها «رافينا»، فابتسم لها وقال:

– يجب أن آخذ السيدة معي! فاهتزت الابتسامة على شفتي الطفلة وقالت:

– أوه! مال بجسمه إلى الطفلة، ولمس برقة خدها وقال:

– أنت ترين يا صغيرتي، ليس معي أحد يشاركني الاحتفال بالعيد. سأكون وحيدًا عندما يطلقون ألعابهم النارية.

– ليس عندك أطفال يا سيدي.

– لا.. ليس عندي أطفال، لكن زوجتي تريد أن تشاركني مشاهدة الألعاب النارية. هل تسمحين لي بذلك؟ ابتسمت الطفلة الصغيرة، وهزت رأسها بالإيجاب، وتركت التنورة الخضراء التي كانت تمسكها بيدها، وحمل «مارك» «رافينا» وحينما تطلعت إليه، وجدت الابتسامة غاضت من وجهه وتحولت إلى كآبة. لا شك في أن الأمر لا يمكن تجنبه. كان وجود طفلة ساحرة لابد من أن تذكره بابنه الذي فقده، وعندما لوح لها بيده عادت النظرة المظلمة إلى عينيه، وقال:

– تعالي... يجب أن نجد مكانًا نمضي فيه الليلة، ونقيم فيه الفراش حتى يدرك الآخرون أننا قد حجزنا مكاننا. هل تعرفين أنه من الضروري أن نمضي

هذه الليلة في أحضان التل؟ هزت «رافينا» رأسها بالإيجاب، ورأت المصابيح بدأت ترسل أضواءها ودقات الأجراس راحت تدوي، وتتردد أصداؤها فوق الجبال، وتلمس كل قلب بلمسة ساحرة، وبعد قليل سوف تشتعل آلاف الشموع فتبدد الظلام الذي يسود مدخل الكنيسة، ولابد من مرور موكب حاملي المشاعل الذي تتقدمه صورة «مادري روزاريا»، ويحملها أحدهم عاليًا حتى يتاح للجميع رؤيتها، وسوف تخترق الألعاب النارية كبد السماء، وتقام الموائد، وتعزف الموسيقى. كانت التلال شاهقة الارتفاع حتى لامست قممها النجوم التي كانت أضواؤها تتألق في عيني «رافينا».

- 9 -

تطايرت الألعاب النارية، وانفجرت، ثم أمطرت وابلاً من الأضواء الملونة على الوجوه المشرئبة دهشة، وكان الشواء محملاً في أسياخ تتقلب فوق فحم متأجج بالنار. وكان الأطفال يمرحون وهم ممسكون بالبالونات، بينما أخذ بائع متجول يعرض على الجماهير الحلى الصغيرة، وقام آخر يبيع الدمى المكسوة بالثياب في حين وقف غراب أسود على كتف غجري وراح يلتقط أوراق الكوتشينة من رف صغير، وحينما قرأ الغجري المستقبل لاثنتين من الفتيات انفجرتا بالضحك. وانهمكت «رافينا» في التطلع إلى كل شيء حتى كادت تنسى ألم كاحلها. كانت ترتدي ثوبًا تقليديًا جعلها تشعر بأنها مثل هؤلاء الفتيات الضاحكات. وكانت ذراع الرجل السردي تحيط بوسطها، فانتابها الاضطراب إزاء إحساسها بالسعادة التي تشبثت بها كما يتشبث هؤلاء الأطفال ببالوناتهم الملونة، التي قد تتعرض لشرارة، فتنفجر. سألها «مارك»:

– هل تأخذين حلية صغيرة أم دمية أم ترغبين في معرفة المستقبل؟ يمكنك أن تنالي الثلاثة إذا شئت. قالت مبتسمة:

– الحلى الصغيرة لا تناسبني، وعرفت مستقبلي، ولكنني أظن أنني أريد دمية. أومأ «مارك» إلى البائع للمجيء؛ لأن «رافينا» سوف تضطر إلى أن تطلع وسط الجماهير حتى تصل إليه، وعندما وصل إليهما البائع اختارت دمية ترتدي ثوبًا قرمزي اللون، الصدر مطرز، والتنورة مكشكشة، وشريط زينة رفيع فوق الثنية. قال «مارك»:

– أعطني الدمية ذات الرداء الوردي أيضًا. والتقطها، وناولها لـ«رافينا» ثم أردف يقول:

– هذه الدمية للطفلة الصغيرة ذات العينين الكبيرتين، ربما نراها ثانية بمحض المصادفة. شعرت «رافينا» بالسعادة لأن تجد «مارك» يتذكر صديقتها الصغيرة التي كانت تجلس معها فوق العربة التي يجرها الأتان الهزيل. وأبدت إعجابها بالدميتان، بينما كان «مارك» يدفع ثمنها. سألها «مارك»:

– قلت إنك عرفت مستقبلك. من أخبرك بحظك؟ قالت:

– إنها امرأة تعيش في القرية تدعى «فيرتيوليلا».

– تقولين «فيرتيوليلا»! آه تلك المرأة التي هجرها ابنها «ماركو» راعي الغنم ابن الثمانية عشر ربيعًا، الذي ضجر من حياته وانضم إلى عصابة قطاع الطرق بغية رغد العيش.

– ألا تستطيع أن تفعل شيئًا لإنقاذه؟ إن أمه امرأة طيبة، تعمل بجد وقلقة على ابنها.

– يجب أن يترك «ماركو» العصابة قبل أن يمد المرء يده لمساعدته، ويتكفل بأمره. إن المشكلة يا «رافينا» تكمن في أننا نجد الناس غير مستعدين دائمًا للعطاء، عندما نطلب منهم بذل جهودهم. حاولت في اليوم الآخر أن أشرح السبب... لكن... انظري... ها هي الطفلة الصغيرة ذات الشريط المعقود في

شعرها. كانت الطفلة تجلس مع عدد كبير من الأطفال أمام مسرح العرائس، تحدق باهتمام إلى ما تؤديه الدمى. تمتم «مارك» قائلا:

– الأطفال يحبون مشاهدة مسرح العرائس. وأحست «رافينا» بالحزن يشوب صوته، وحدست أنه كان يقف هنا مع ابنه منذ سنتين. وكان يضحك مثل هؤلاء الأطفال الضاحكين، وعيناه تتألقان بمثل الصدق والسعادة اللتين تنبعثان من عيون هؤلاء الأطفال. قال «مارك»:

– أعطها الدمية. وأشاح بوجهه الذي أضاءته شعلة من عود الثقاب الذي أشعل سيجارته، وأرخى الدخان ستارة فوق التغيير الذي بدا في عينيه، وهما يبارحان سويًا بعيدًا عن صوت ضحكات الصغار. أقبل الليل... وبعد الانتهاء من مشاهدة الألعاب النارية، جلس الناس جماعات، والتفت كل جماعة حول النار التي أضرمت في الهواء الطلق، وراحوا يتناولون شرائح اللحم المشوي، وقطع الخبز، وأديرت أكواب الشراب، بينما راح المنشدون ينشدون أغاني «سردينيا» القديمة على آلات الماندولين. كان مذاق الطعام طيبًا، وكانت كتف الرجل مكانًا مريحًا كي تريح رأسها، بينما تلاعبت ألسنة اللهب لتلقي ظلالها على الوجوه التي بدت عليها القوة والجمال والوقار. عكس شعر «رافينا» تألق النار، وتلألأت عيناها بخضرتهما وهي تستمع إلى أغنية «سردينيا» التي تروي قصة حب راعي غنم، وسرًها أن تدرك معنى الكلمات التي تتردد باللهجة المحلية، وكانت تقول: «الحياة تجعلني أصرخ.. وأضحك.. وأتنهد. أحبها كلها.. أما أنت فأحبك أكثر من أي شيء آخر!» ودفعها شيء مبهم إلى أن تتطلع إلى «مارك» بينما كانت الموسيقى والكلمات تخف تدريجيًا، وظنت أنها ترى ومضة حنان في عينيه، وسرعان ما أدركت السبب، إذ دخل فجأة قوام نحيل إلى دائرة ضوء القمر، له شعر أسود، حافي القدمين، يمسك بيده دُفًا صغيرًا. إنها فتاة المطعم التي راحت تبتسم وهي تدور بين الناس، ثم خطت خطوات سريعة حتى تطايرت

تنورتها الحمراء في الهواء، وتوقفت أمام «مارك» وزوجته وشاهدت ابتسامة على شفتيها، يشوبها اليأس المضمض، ثم قالت:

– «بادرون»؟! كانت كلماتها تحمل نبرة التوسل، وتشبثت نظراته بعينيها، ثم بدأت من جديد ترقص رقصة الدفء. توترت «رافينا» وهي جالسة إلى جوار «مارك» في خلال الرقصة، وودت أن تولي الفرار، لكن كيف لها السبيل وكاحلها يعوقها عن السير، وسوف تبدو كبرياؤها مهينة إذا هي فرت من فتاة ترقص لزوجها وحده. رأت «رافينا» أن الرقصة لن تنتهي، وأصبح فوق احتمالها أن تجلس هكذا إلى جوار «مارك»، وشعرها يحك ذقنه، ودفء كتفه ينفذ في خلال بلوزتها الحريرية. وكانت رعشة الدفء، وظلال الفتاة تطوف بكل مكان في دائرة ضوء النار، وأخيرًا غربت الفتاة، لكن ظلها بقي في المكان، فأشاع سحابة من الكآبة على «رافينا»، ولم تستطع الفكاك من أسرها. بدأ الناس يتثاءبون، وأخذوا يسعون إلى النوم إما في خيامهم أو في عرباتهم، وتبادلوا القبلات وهم يرددون التهنئة بالعيد السعيد. شعرت «رافينا» بيدي «مارك» فوق كتفها، ونظرت إليه بوحشية عندما جذبها إلى صدره، ولكنها سحبت نفسها دون أن تبادله قبلته. قال بنبرة باردة:

– إنها عادة أن يتبادل الناس القبلات في العيد، ألم يدخل المهرجان السعادة إلى قلبك؟ قالت:

– أنا.. أنا أمضيت وقتًا طيبًا. ابتسم ساخرًا وقال:

– وقت طيب؟ متى تتعلمين أن تكوني واحدة منا، وتشعرين بالعاطفة نحو شيء ما؟ تبدو عليك القسوة حتى يبلغ بك الأمر إلى أن تنتزعي الأقراط من أذنيك. هل تدعين فتاة أخرى تسرق منك حبيبك؟ قالت ببرود:

– أنا لا أضع أقراطًا في أذني. ومرحبًا بالفتاة التي تستطيع أن تسرق. وحاولت أن تفلت منه، لكن ألم كاحلها أفسد عليها المحاولة، وكادت أن تتهاوى، ولم تجد أمامها إلا أن تستعين بمساعدة «مارك» على التوجه إلى

خيمتهما. كانت ليلة مخملية، يتألق فيها ضوء النجوم. وكانت «رافينا» قد اعتادت في رحلاتها المدرسية أن تنام في المخيمات التي تقام في الهواء الطلق، أما الليلة فإن الأمر مختلف تمامًا. إنها تسمع صوت الريح تشدو أناشيدها عبر الأشجار التي تكسو الجبال وعندما تخلد إلى النوم فإنها سوف تشارك «مارك» التدفئة ببطانية من جلد الغنم لتواجه برودة هواء الجبل. قال «مارك»:

– الرباط يجب أن يتخفف قليلاً حول كاحلك. اجلسي على هذه الشجرة المتهاوية، وسأفعل ذلك بنفسي. وكان مستحيلاً على «رافينا» مناقشة «مارك»، وامتثلت لطلبه، وشعرت بقوة لمسة أصابعه وهو يحل الرباط الحريري ويعيد تثبيته خفيفًا حول كاحلها، حتى لا تشعر بالخدر في أثناء نومها.

– هل الرباط مريح؟

– أجل، شكرًا لك. وقف ثم استدار بظهره إلى شجرة وقال:

– قلت شيئًا قبل إصابة كاحلك، ولكنني نسيته حتى الآن. لقد أشرت إلى فتاة... قالت:

– «مارك»... ليس الوقت أو المكان مناسبين لمناقشة الموضوع، أنا متعبة جدًا، يوجد هناك أناس بالقرب منا.

– بالطبع.. لكن أجيبي فقط عن سؤالي يا «رافينا». هل تظنين أنني على علاقة بامرأة أخرى؟ وقع السؤال عليها وقعا مفاجئا قاسيًا فقالت:

– إذا كنت تبغي امرأة أخرى فمن الخير أن تدعني أرحل. ووقفت على قدميها لمواجهته، وأردفت تقول:

– لا تحتفظ بي معك يا «مارك». أنت تعلم بانتفاء السعادة بيننا، وحياتنا تسير هكذا. واستدارت لتبتعد عنه، ولترقد فوق السجادة، وودت لو تخلد للنوم قبل أن يلحق بها، ولكنها سمعت وطء أقدامه تقترب منها، وتوتر جسمها عندما نام إلى جوارها، وانتظرت أن يلف ذراعه حولها كعادته، إلا أنه رقد بعيدًا عنها. استيقظا مبكرين في الصباح، وطويا فراشهما وغادرا

المكان ميممين شطر البيت، وبدت لهما الجبال خالية من الناس، ولم يبق أحد سواهما، وخيل إليهما أن هذا الحدث لن يتكرر ثانية، وحدثت نفسها قائلة: «إنني لن أشعر بأنني أنبض بالحياة، أو أنني امرأة بصحبة رجل كما أشعر الآن. «مارك»، أوه، «مارك» لو أستطيع أن أعرف حقيقة قلبك.. كما أعرف شكل وجهك. وصلا البيت قبل الظهر وكانت «رافينا» سعيدة أن تدخل غرفتها، وتغسل جسمها، وترتدي ثيابًا خفيفة فضفاضة، وتناولت الطعام وحدها، وأمضت فترة بعد الظهر وحيدة. وشعرت بأن «مارك» نأى بعيدًا عنها، لأن لديه شيئًا على جانب من الأهمية يخص مستقبلها يريد أن يفضي به إليها. واستبدلت ثوبًا حريريًا بثوبها وهبطت درجات السلم لتنتظر «مارك» في غرفة الاستقبال حيث كانت تلتمس الهدوء لقلبها.. وعقلها! أخيرًا جاء «مارك» وبدا لها رجلاً مختلفًا وهو في بدلته الرمادية. كان صارمًا، طويلاً، متحفظًا، وليس في صورة «السردي» الذي حملها فوق جواده لمشاهدة الاحتفال بالعيد. واستقرت عيناه على قدميها اللتين استراحتا على مقعد مستدير صغير وقال:

– كيف حال كاحلك؟

– يؤلمني، ولكنني سأعيش. ألا تجلس يا «مارك»؟ أنت تثيرني بقوامك الفارع وهو يطل عليّ. غاص «مارك» في أحد المقاعد الوثيرة، وراح يبحث عن صندوق لفائفه، وسألها:

– هل يمكنني التدخين؟ قالت:

– طبعًا، يمكنك التدخين، أنت تعرف أنني أحب رائحة الدخان. قال:

– إنني لا أعرف ماذا تحبين يا «رافينا»؟ ونفث الدخان الرمادي في الهواء، فاتخذ شكل علامة استفهام. إنه رمز صامت لسؤال يجول في أعماق قلبها. قال:

– «رافينا». ردد اسمها، وشعرت بأن ما سيقوله «مارك» سوف يحدد مصير

مستقبلها. وحتى هذه اللحظة، كان قلبه لا يلين أمام أي شيء. كان صارمًا عندما قال لها «ستتزوجيني، وستتعلمين كيف تعيشين مع وجهي هذا». استقرت عيناها على وجهه، وكان غريبًا أن تشعر بأن ندوبه لم تعد تخيفها كثيرًا؛ لأنه لم يتعود أن يطأطئ رأسه ليخفيها عن الناس، وأحست أنها توارت عن بصرها، وأصبح ما يعنيها منه قوته وسحر عينيه. سألته:

– ما الأمر يا «مارك»؟ وتقلصت يداها.. وفكرت في الكلمات التي تفوهت بها وهما فوق الجبل حينما قالت له بأن السعادة الحقيقية لن تعرف مكانها بينهما! قال بصوت حاسم المخارج قاطع النبرات:

– سأغيب عن البيت أسبوعًا، لن أخبرك بالسبب، أو المكان الذي سأتوجه إليه، لكن عندما أعود ستكون لدينا أمور يجب مناقشتها، وحقائق يجب أن نواجهها. برزت عيناها، وسألته:

– ألا نستطيع مناقشتها الآن؟ هل يجب عليّ الانتظار أسبوعًا آخر؟ نهض «مارك» واقفًا على قدميه وقال:

– أجل.. لقد طلبت منك الشيء الكثير يا «رافينا»، والآن أطلب منك الصبر.

– تطلب مني الصبر يا «مارك»؟ أن أمضي أسبوعًا كله في انتظار وتساؤل، بينما تذهب أنت أينما تشاء، هل هي رحلة عمل أيضًا؟ قال مترددًا:

– ليس تمامًا.

– هل لها علاقة بتلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي رقصت لك ليلة أمس؟ توجهت عيناه لتلتقيا بعينيها، وقال:

– رقصت لي؟ هل تظنين؟ شعرت «رافينا» بالبرود يكتنفها، واستجمعت شجاعتها وقالت له:

– إنني أعرف أنك تورطت في علاقتك مع هذه الفتاة، ومن أجلها تتغيب كثيرًا عن البيت. اسمعني يا «مارك».. ليس من المحتم أن تنتظر أسبوعًا آخر

حتى نناقش أمر مستقبلنا. يمكننا مناقشته الآن. إذا أصررت على الذهاب فلا تتوقع أن تجدني هنا عندما تعود. بدا التجهم على وجهه، وتقدم نحوها، وقال:

– بل يجب أن تكوني هنا. إنني أصرّ على أن تعديني بالبقاء حتى أعود.

وارتجف صوتها وسألته:

– لماذا تصر على وعدي؟ «دونا جوكاستا» تستطيع أن تحتجزني في غرفتي.

برزت الندوب جلية في وجهه وهو يقول:

– لا تكوني طفلة، كل ما أطلبه هو ثقتك، لمدة أسبوع واحد فقط. هل يمكنك أن تمنحيني إياها على الأقل؟ قالت مترددة:

– على الأقل؟ ظننت أنني أعطيتك كل شيء طلبته مني... إنني آسفة.. كل شيء تراه يعد قليلا في نظرك في الوقت الذي يعني عندي المزيد من الألم. إنني أعاني الشقاء وأنا بعيدة عن وطني، وتأتي بي إلى هنا إلى بيت الأشباح والذكريات. هل تظن أنني أمضيت يومًا سعيدًا هنا؟ هل تظن أنني أكترث كثيرًا في أن تفضي إليّ الآن أو بعد أسبوع بأن لعبة الثأر انتهت؟ نهضت واقفة وراحت تجيل طرفها فيه، فلم تأبه لقوته إذا ما قورنت بنحولة قوامها، فقال لها:

– أجل إن لعبة الثأر انتهت. هناك بعض الكلمات لم تقل بعد، لكن بحق الشيطان لن أتفوه بها الآن. لا أظن أنني لا أستطيع أن أقولها. وتنحى جانبًا فبدت صورته الجانبية مطبوعة على الضوء الأخضر باردة متكبرة، ثم قال:

– كم أود أن أجعلك تفهمين بأن هذه الرحلة مهمة وغير مهمة في الوقت نفسه، وعليّ أن أذهب لأنني وعدت بالذهاب. ألا يمكنك أن تعديني؟ قالت ببرود:

– لا، لا يا «مارك». هز كتفيه العريضتين باستخفاف وقال:

– المكتوب هو المكتوب! حملقت «رافينا» إليه وهو يغادر غرفة الجلوس وقد

تجمدت كلماته «المكتوب.. هو المكتوب» على شفتيها، وأحست بأن الرباط الضاغط الملفوف حول كاحلها قيودًا تغل حركتها. إن المكتوب هو المكتوب ولن تستطيع أن تفعل شيئًا لتغيير مجرى الأحداث. ووقفت مكبلة بالكبرياء وتركته يذهب إلى الفتاة الأخرى. «لانونا» لا بد من أن تكون راودها الشك في حدوث صدع في علاقة حفيدها بزوجته، ولكنها لم تشر إلى رحيله المفاجئ من المنزل عندما التقت بها في صالونها هذا المساء، وإنما تحدثت عن تلك الأيام التي أمضتها في الجزيرة، وتفحصت «رافينا» ببصرها مليًا، وهي جالسة على السجادة بجوار المدفأة، وقالت لها:

– يمكنك أن تعتبري نفسك امرأة يوم تفهمين «السردي». أنت تجلسين تمامًا كما جلست في تلك الليلة الأولى التي أتيت فيها، كنت طفلة ورحت أتطلع إلى شعرك في ضوء النار، وقلت لنفسي: آه.. هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر، والعينين الخضراوين ستسبب إثارة متاعب كثيرة. قالت «رافينا»:

– كنت تريدين فتاة مطيعة سهلة الانقياد! قالت الجدة:

– أردت السعادة فقط لـ«ماركوس» بعد طول الحزن، وظننت أن الحزن سوف يقضي عليه، أو سيقوده إلى الجنون، أخبريني يا «رافينا» متى تفضين إليه بوجود جنين في أحشائك؟ نظرت «رافينا» إليها، وودت أن تنكر ما حدسته «لانونا» ولكنها اصطدمت بالأمنية الدفينة التي تتراقص في عينيها، فوجدت أنه من الحماقة الإنكار، فقد رأت «لانونا» الكثير من هذه الدنيا، وتشعر بما يتمناه «مارك». تركزت الدموع فجأة في عيني «رافينا» وقالت:

– وماذا يهم في الأمر؟ كنت محقة منذ البداية يا «لانونا». قلت إن الإنسان لا بد من أن يتزوج بفتاة من قريته وأنا راحلة. قالت «لانونا» مصدومة:

– لا تستطيعين، هناك طفل... ربما يكون ابنًا لـ«ماركوس».

– لا يهمني... إنني ما جئت إلى هنا لأقدم إلى «مارك» ما يريد مني دون أي اعتبار لمشاعري. إن أحاسيسي لم تعد تعنيني، فهو واقع في غرام فتاة أخرى.

اقتربت «لانونا» من «رافينا» ولمست دموعها التي انحدرت على وجنتيها، وكأنها اعتادت أن تؤمن بما تشعر به. قالت:

– ما هذا الذي تقولينه؟ كيف تكون في قلبه فتاة أخرى؟ «ماركوس» تزوجك.

أطلقت «رافينا» ضحكة مريرة وقالت:

– ولكنه يأسف الآن على هذا الزواج. زواجنا انتهى يا «لانونا»، وأنا راحلة.

قالت الجدة:

– هنا بيتك، كل أطفال «دي كورزيو» ولدوا في منزل السرو، وهنا سيولد طفلك. قالت «رافينا»:

– سيولد طفلي في «رافنهول». ووقفت على قدميها، واستطردت تقول:

– ألا تعلمين أن «مارك» يمضي هذه الليلة بصحبة امرأة أخرى؟ إنها من بنات الجزيرة، لها شعر أسود مثل «دوناتا». ربما يجد لديها كل ما فقده.

– إنك كالطفلة... كوني عاقلة.

– كنت عاقلة أكثر من أي إنسان آخر، ولكنني لا أستطيع أن أتمسك بالتعقل تجاه علاقة «مارك» بالفتاة. وبدت «لانونا» فجأة امرأة عجوزًا طاعنة في السن بالغة الإعياء، وقالت:

– لا توجد أية علاقة على الإطلاق. زوجك يا طفلتي ذهب للبحث عن «ماركو كريستي»، وهذا معناه الذهاب إلى الجبل حيث يختفي قطاع الطرق. لم يرغب «مارك» في أن تعرفي بالأمر، وإنما أفضي به إليّ، وطلب مني أن أحتفظ بالسر. إنهم رجال خارجون على القانون، وقد توسلت له الفتاة أن يبحث لها عن فتاها، وقال إنه سيسرك إذا استطاع أن يقنع ابن «فيرتيوبللا» بالعودة إلى أمه، ويسلك حياة شريفة. شيئًا فشيئًا أخذت الكلمات تخترق قلب «رافينا» وسألت:

– لماذا لم يخبرني؟ لماذا احتفظ بهذا السر؟ قالت الجدة:

– ربما ظن أنك ستقلقين عليه، أو ربما خشي ألا تسمحي له بالذهاب.

وأخذت يدها تهتز، وأومأت إلى «رافينا» قائلة:

– ألا تسكبين لي كأسًا من الشراب يا طفلتي؟ أشعر بأنني أحتاج إليه. ومن طلعة وجهك أرى أنه من المستحسن أن تشاركيني في احتساء كأس! سوف يساعدك على النوم. وبعد مضي يومين سمعت طرقة على باب غرفة نومها، فتحته ورأت «رينزيو» أمامها يحمل في يده رسالة لها وصلت لتوها، وشاهدت طوابع إنجليزية على ركن الظرف وبدا عليه خط «رودري برينين» في غير اتساق. سألها «رينزيو» وعلى وجهه علامات قلق واضح:

– هل تريد سيدتي فنجانًا من القهوة؟

– أجل أحضره لي في غرفة الجلوس، سأقرأ الرسالة هناك. وقفت في غرفة الجلوس فترة طويلة تحاول فض الرسالة، لكن أصابعها لم تطاوعها على فتحها، وكانت تخشى من أن تحمل في طياتها أنباء سيئة، ولكنها تحاملت أخيرًا على نفسها، وفتحت الرسالة بأصابع باردة، متوترة. كتب «رودري» لها يخبرها بعودته إلى «أستراليا»، وأقنع أباه بالذهاب معه، وأنهما سيستقلان باخرة، وأخبره الطبيب بأن الرحلة البحرية سوف تفيد «جاردي» وحيث إن «رافينا» تزوجت واستقر بها المقام في «سردينيا» فلا يوجد أي مبرر يدعو للإبقاء على «رافنهول»، فأعلنوا عن بيعه. جلست «رافينا» على مقعد لأنها شعرت بوهن يسري في أوصالها. إنها لا تصدق أن «جاردي» يبيع «رافنهول»، وسوف يذهب مع «رودري» إلى «نيوساوث ويلز». إنه مكان بعيد يصعب عليها بلوغه، وشعرت بأن أقرب الناس هجروها! وتذكرت طفلها! قالت منذ ليالٍ قليلة مضت إنه سيولد في «رافنهول»، لكن البيت الذي أمضت فيه طفولتها سيصبح ملكًا لإنسان غريب عنها. وأحست برغبة في البكاء، فلم يعد هناك أي شيء يمكن أن تتعلق به، لا «جاردي» ولا بيت ولا واحد يمكن أن تركن إليه. وعندئذ سمعت وقع أقدام تقترب منها وتقول:

– إن فنجانًا من القهوة أفضل من لا شيء. وتطلعت ببصرها لتأخذ الفنجان،

فوجدت إنسانًا طويلاً يقف على الباب وقد بدا عليه الإجهاد، وفي نظراته علامات الفضول، فصرخت قائلة:

– «مارك»! فقال مبتسمًا:

– ظننت أنك رحلت. قالت:

– «لانونا» أخبرتني بسبب ذهابك إلى الجبال لتقابل قطاع الطرق. عقد ما بين حاجبيه، وقد كسا التراب حذاءه، ورأت مزقًا في قميصه. قال:

– لا تقولي بأنك كنت قلقة عليّ؟ سألته وهي تمزق رسالة «رودري» قطعًا صغيرة:

– هل وجدت ابن «فيرتيويللا»؟ هل تحدثت معه؟

– أجل. كان يحتاج إلى من يقول له «إنك فتى أحمق» وإن أمه وفتاته في انتظار عودته إلى البيت ليمنحاه حبهما، هذا الحب شيء لا يستطيع أن يطلبه أو يستدينه أو يسرقه. إنني أحسده. ورفعت «رافينا» عينيها عن الرسالة الممزقة. وتطلعت إلى «مارك» وقالت:

– على الفتاة التي تحبه؟

– أجل.. على الرغم من الأذى الذي أصابها منه فإنها تحبه. هل مزقت هذه الرسالة يا «رافينا»؟ نظرت إلى قطع الرسالة بدهشة وقالت:

– إنها رسالة من «رودري». انتصب «مارك» واقفًا وقال:

– «رودري»؟ وتمزقين رسالته؟ لماذا؟

– أنا.. أنا لم ألحظ قط. إنه سيذهب إلى «أستراليا» مرّة ثانية، وبصحبته «جاردي». لقد باعوا «رافنهول».

– إذن لن يكون أمامك أي مكان تهربين إليه؟

– أوه.. «مارك». ووضعت وجهها بين يديها؛ لأنه لا يشعر بما تشعر وتمنت.. لكن تمنت ماذا؟ وسرت رعشة في أوصالها عندما خطا نحوها ولمست يداه كتفيها. سألها:

– هل تريدين الذهاب إلى «أستراليا»؟ شعرت بقربه إلى جوارها، وأدركت

تمامًا ماذا تريد. هزت أنفاسه شعرها وقال:

– «رافينا».. هل تريدين أن أحررك مني؟ تطلعت إليه وأدركت أنها لن تتحرر منه، ولن تهرب من الحب إذا نبض القلب به. وفي هذه اللحظة شعرت بأنها لا تستطيع أن تختار حريتها، كما أنها لم تعد تقوى على العيش معه دون حبه. سألته:

– هل ستدعني أرحل؟

– لن أدفعك إلى البقاء، هذا إذا لم تكوني راغبة في ذلك. ولأول مرّة رفع «مارك» يده ليغطي وجنته المشوهة، وقد بدت سحب الألم في عينيه. واستطرد يقول:

– كيف لي أن أسألك أن تحبينني؟ كيف لي أن أطمع في قدرتك على الاحتمال؟ إنني لا أملك حديقة ورود أقدمها إليك. وكل ما أملكه منزل أشباح وذكريات. واستعد ليغادر الغرفة عندما استوعبت فجأة كل ما قاله لها، فقفزت واقفة على قدميها، وصرخت تنادي اسمه:

– «مارك»... حبيبي! فوقف ساكنًا تمامًا، رأسه شامخ بالكبرياء، ولم يستطع أن يلتفت ليتطلع إليها، فأسرعت وشخصت ببصرها إليه، وقالت برقة:

– إنني لا أكره قبلاتك أو ندوبك. واشرأبت بجسمها، وجذبت رأسه إليها، وكانت شفتاها ناعمتين، وهي تضع قبلة على وجنته التي تكسوها الندوب. وأردفت تقول:

– إن الحب أعمق من الندوب الغائرة يا «مارك»! سألها والشك في نظراته:

– كم يطول هذا الحب؟ أشارت بأصبعها إلى المزق في قميصه وقالت:

– لا أعلم وإنما كنت أشعر بأنني أحبك دائمًا.

– كنت تكنين الكراهية لي. أمسك بيدها، وشعرت بنبض قلبه، وأردف يقول:

– أنت تزوجتني وأنت تعرفين بأنني لن أقوى على إلحاق الأذى بصديقك الغالي «رودري» إنك توجهت لمقابلته يوم زواجنا قاطعته قائلة:

www.rewity.com

– «جاردي» كان مريضًا.. وكنت خائفة من نتيجة ما سيحدث لو أن «رودري» أفضى إليه بحادث السيارة. كان «رودري» يريد أن يعترف لأبيه... واستغرق الأمر مني فترة لكي يعدل عن إصراره على الإقرار بجريمته.

– كان اعترافه سيحررك من أي التزام نحوي... ألم تراودك الرغبة في أن تكوني حرة؟ جذبها وهو يتحدث إليها، فوضعت ذراعيها حول عنقه، ونظرت إلى عينيه، وفي خجل ضغطت وجهها على صدره، وقالت:

– لم أكن أعرف حقًا ماذا أريد حينئذ، ولكنني الآن أعرف ماذا أريد. إنني أريد أن أسعدك يا «مارك» سعادة تفوق ما قدمته إليك «دوناتا». التفتت يداه حول وسطها، فندت زفرة من فمه وقال:

– تزوجت «دوناتا» لأرضي أسرتي، ولكنني تزوجتك لأرضي نفسي. كنت على استعداد لأن أزيح من الوجود أي إنسان يعترض طريقي. كنت أطالبك بدفع الثمن وفاء للطريقة التي فقدت بها ابني «دريستي»، أما الآن فلا أكاد أتصور أنك تقدمين إليّ حبك. وقفت «رافينا» على أطراف أصابع قدميها وهمست في أذنه بسر معين، ومضى وقت طويل قبل أن يعود كل واحد منهما إلى الحديث. وسرعان ما غابت الظلال من منزل «السرو»، وترددت ضحكات طفل في أرجائه، وراحت «رافينا» ترقب بحب زوجها وهو يرفع الصبي على كتفه وينظر إليها بعينين تتألقان حبًا، ولسان حالهما يردد «المكتوب... هو المكتوب»!

تمت بعون الله